بسم الله الرحمن الرحيم

القتل باسم الدين

بقلم

حضرة مرزا طاهر أحمد رحمه الله تعالى

الخليفة الرابع للإمام المهدي المسيح الموعود عليه السلام

نقله من الإنجليزية:

المرحوم الحاج محمّد حلمي الشافعي

الفهرس

الفصل الأوّل

الدين يقطُرُ دمًا..

هل ابتدأ تاريخ البشرية بلعنة قابيل؟

إنّه على أية حال رواية دموية للجريمة والاغتيال والتعذيب .سالت دماء غزيرة عبر تاريخ البشرية تكفي لصبغ الأرض كلّها باللون الأحمر.. بل وتفيض. متى يتوقّف الإنسان عن قتل رفاقه من البشر؟ ومتى بلغ العطش الدموي حدّ الارتواء؟

كان هابيل أوّل قتيل بِيَدِ أخيه.. وبلا سبب مقبول. سجّل القرآن والتوراة هذه الجريمة لتكون عبرة لنا جميعًا، وستبقى مثلًا إلى آخر الزمان. ادرس التاريخ البشري.. يتبيّن لك بوضوح أنّ الإنسان كائنٌ عدواني.. لم يروِّض عدوانيته تقدمُ المدنية المستمر. لا يزال إنسان اليوم وحشًا قاسيًا كما كان منذ آلاف السنين. وقصة تجرّده من الرحمة قصة طويلة مؤلمة. نار العدوان البشري لم تخمد بعد.. رغم انقضاء القرون الطويلة عليه وهو في حياة التوحّش.

اغتيال الأفراد، وإبادة الجماعات أمرٌ يتكرّر عبر التاريخ. فطالما هاجمت الدول دولًا غيرها، وتحاربت الأقطار مع الجيران والأباعد، وغزت الجحافل البشرية القادمة من المراعي أو الصحاري بلادًا ذات حضارات قديمة. أسالَ قيصر والإسكندر الدم أنهارًا، وخرّب هولاكو وجنكيز خان مدينة بغداد، وارتوت أرض كير وكشترا الهندية بدماء قبيلتي كاورافاس وباندافاس.

جرى الدم أحيانًا باسم الشرف، وأحيانًا أخرى باسم الانتقام من أخطاء مزعومة. واكتسحت الجموع البشرية الغاضبة أراضي مسالمة طلبًا للطعام حينًا.. وطمعًا في السيادة والتوسع أحيانًا. بَيْد أنّ الإنسان.. الذي خلقه الله على صورته.. كثيرًا ما سُفِحَ دمه باسم خالقه! واتُّخِذ الدين مبرِّرًا للقتل الجماعي. ومن يرَ هذا الجانب من الطبيعة البشرية يتساءل عمّا إذا كان البشر هم أحطّ وأعنف الأجناس على سطح الأرض! يُنتظر من البشر أن يتحضّروا بتأثير الدين.. لكنّهم، يا أسفاه، جعلوا الدين يقطُرُ دمًا! تُذكّرنا هذه الحقيقة بالقصة التي وقعت عند خلق آدم عليه السلام، والتي سجّلها القرآن والتوراة، يقول القرآن المجيد:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: ٣١).

هذا الحوار فيما بين الملائكة والخالق جلّ وعلا يُسبّب الحيرة، لأنّ كلّ كتاب في التاريخ البشري يبدو في جانب الملائكة، ويؤيّد أنّهم كانوا على حق. وإذا كان الأمر كذلك.. فلماذا رفض الله تعالى (نصحهم).. ولم يقبل

(اعتراضهم) على خطّته؟ لم يقبل الاعتراض لأنّه في واقع الأمر اعتراض على النبوّة.. ثمّ هو في النهاية، اعتراض على نبوّة خاتم الأنبياء محمّد ﷺ.

تاريخ الأديان في أي جزء من الدنيا.. وفي أي فترة زمنية.. هو تاريخ التعذيب، والقهر، والقتل، والصلب. ومما يخيّب الآمال أنّ الدين.. والأصل فيه أن يكون الملاذ الأخير للسلام في عالم من الحرب والصدام.. ما انفك ذريعة للتدمير وسفك الدماء. والحق أنّ الدين ليس في حدّ ذاته السبب الحقيقي وراء القتل الجماعي، ومن الخطأ أن نحسبه كذلك، فما شُرِعَ الدين ليحثَّ الناس على القتل.

يحس المرء بالرضا ممزوجًا بالدهشة.. عندما يتبيّن له أنّ الله تعالى لم يجعل الدين لهذا الغرض.. وينبثق أمام الإنسان حينئذٍ بصيص من الأمل. فخليفة الله الذي اعترضت الملائكة على خلقه، هو في حقيقة الأمر مصلحٌ عظيم.. دعا إلى دين اسمه الإسلام.. أي السلام. ويبقى بعد ذلك هذا السؤال، لماذا يبدو للرائي من أول وهلة أنّ التاريخ يُعطي انطباعًا بأنّ الدين يُجيز إراقة الدماء والقتل باسم الإسلام؟ يجلّي القرآن المجيد هذه المسألة تمامًا، ويوضح السبب، ويجيب على السؤال. حكى لنا القرآن أحداث الماضي لِيُبيّن أنّ الذين يشرّعون الوحشية باسم الدين.. إمّا أنّهم كانوا أعداء للدين، أو أنّهم فسدت فيهم عقيدتهم الدينية. نعم، هناك قيادات دينية حُرمت دفء المودة والشفقة والرحمة والتقوى.. وتقتضي الأمانة القول بأنّ هؤلاء منافقون.. شَبِقون إلى السلطة.. وتسيطر عليهم نزعة القوة.. ومن الخطأ أن تُنسب سيئات مثل هؤلاء الناس إلى الدين. الحقيقة الحقّة أنّ الله تعالى منبع الرحمة.. لا يسمح لأتباع دينه أن يضطهدوا خلقه.

يسوق القرآن المجيد عديدًا من الأمثلة التاريخية ليدلل على هذه الحقيقة. قصّ علينا أخبار الأنبياء السابقين، وقدّمهم إلينا مُثُلًا كاملة للإصلاح والدعوة الدينية. ولو كان الله تعالى يبيح استخدام القوّة الجبرية في هذا المجال لكان بالتأكيد قد أجاز لمؤسسي الأديان هؤلاء استعمالها. إنّه لمن البيّن تمامًا أنّ الإكراه ممنوع البتة. وما لجأ إلى استعماله أتباع الأنبياء.. الذين بعُد بهم العهد.. إلا لأنّهم ورثوا الدين محرفًا بفعل الزمن، أو أنّهم أنفسهم كانوا فاسدين، فاستخدموا القسر باسم الدين مع أنّ الدين يرفضه.

تاريخ الدين في القرآن يقدم أمثلة وحالات ونماذج متعددة لأقوام لا دين لهم.. استخدموا الإكراه والعنف باسم الدين. وفي سبيل الله لقي الناس أشدّ العذاب على يد أقوام لم تكن لديهم أدنى معرفة بالله. دعا نوح عليه السلام قومه إلى الصلاح والتقوى.. وما كان ظالمًا، ولكن الذين أرادوا كتم صوته كانوا خاطئين. لما سمعوا رسالته قالوا: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (سورة الشعراء:١١٧).

تاريخ الاضطهاد الديني كما يحكيه القرآن.. يبين بوضوح أنّ متبعي الأديان السماوية الحقة كانوا دائمًا وأبدًا فريسة للعنف. يقدم القرآن إبراهيم عليه السلام كمثال، إذ دعا قومه إلى الله متوسلًا بالحب والعطف والتواضع. لم يكن بيده سيف أو أي سلاح آخر، ولكنّ الملأ من قومه فعلوا معه ما فعله أعداء الدين مع نوح عليه السلام. قال له أبوه آزر: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (سورة مريم:٤٧). كلمات آزر

هي عينها كلمات أعداء نوح عليه السلام. ولقي كل من نوح وإبراهيم عليهما السلام الإهانة والإذلال، والضرب والتعذيب، ولكنّهما تقبّلا ذلك كلّه بالصبر والثبات. لقد أشعل قوم إبراهيم عليه السلام في وجهه نار المعارضة والإيذاء بل أنّهم حاولوا إحراقه حيًّا. ولوط عليه السلام عارضَه قومه، وما كانوا يفقهون عن الدين شيئًا.. عادوه وقاوموه مع أتباعه باسم الدين، هددوه باستعمال العنف معه، وأنذروه وأنصاره بالنفي، وفعلوا كلّ ما في وسعهم للحيلولة بينه وبين الدعوة إلى دينه. ويتكرر نفس المشهد مع شعيب عليه السلام، إذ قال له معارضوه المستكبرون: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَولَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ (سورة الأعراف:٨٩).

ويثبت القرآن بهذه الأمثلة أنّ للدين الحق أسلوبًا خاصًا للدعوة، وأنّ لأعداء الحق طريق الجبر لمناهضته. وجواب شعيب عليه السلام على تهديدات قومه يمثل موقف أنبياء الله جميعًا. قال شعيب: ﴿أَوَلَو كنَّا كَارِهِينَ﴾؟ محال أن تُغيَّرُ القلوب بالإكراه. هل يمكن لإنسان أن يعود إلى دين نبذه من بعد ما تبين له زيفه؟ هل من المستطاع أن يُصدّ المرء عن دين ارتضاه بعد أن عرف صدقه؟

لم يستطع طاغية أبدًا أن يخرج عن هذا المنطق. والحقيقة التاريخية تؤكد أن السيف أعجز من أن يتحكم في قلوب الناس. إذا استطاعت قوى القهر أن تُخضع الجسد البشري فليس بوسعها أن تخضع الروح. والإيمان من أمور القلوب.. وهو من الفطرة البشرية التي لا تتبدل أبدًا. ولن ينفك الأبرياء، الذين حَكَمَ بإعدامهم باسم الدين من لا يعرفون الدين.. لن ينفكوا رافعين

أصواتهم منددين بهذا الظلم المبين، وسيطرق الأسماع احتجاجهم: أولوكنّا كارهين؟! هل تريدون منّا أن نستمسك بعقائد مجّتها عقولنا؟ وكلّما يُثار هذا التساؤل.. يهبُّ أعداء الدين في كلّ الدنيا فيتّهمون الأنبياء بالرِدّة، ويحكمون عليهم بالقتل، ويبتكرون لهم من وسائل التعذيب والعقوبات ما هو مجرّد عن الإنسانية. وتمضي قصة العنف لا تلوي على شيء. ويلقى موسى ﷺ وأتباعه نفس المصير على يد (أئمة) الدين في زمنهم: فرعون، وهامان، وقارون.. الذين قالوا: ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ (غافر:٢٦).

الأنبياء لم يعاقبوا أحدًا تحوّل من دين إلى دين، ولكنّهم هم الذين عوقبوا مع أتباعهم بتهمة (الرِدّة) المزعومة. وبعد موسى ﷺ احتمل عيسى ﷺ عذابًا مماثلًا، وعنفًا تصاعد حتى بلغ ذروته عندما حاولوا قتله على الصليب. كان سفك الدماء والعنف دائمًا باسم الدين، وكان الضحايا دائمًا يدانون بتهمة الارتداد.. ومع ذلك فما من كتاب سماوي شرع عقابًا دنيويًّا على من يتحول من عقيدة إلى غيرها. وإذا كانت نصوص الكتب السماوية قد حرفتها أيدٍ غيرُ أمينة فليس اللوم على الكتب.. لأنّ الله تبارك وتعالى الذي أوحاها إلى أنبيائه.. لا يمكن أن يُضَمِّنها تعاليم تحضّ الناس على ممارسة العنف في أمور العقيدة.

وبقصص الأنبياء وتاريخ الأديان يدلل الله على أنّ النبيين ومتّبعيهم كانوا دائمًا ضحايا للعنف، وأنّهم تقبّلوا تلك الوحشية بالصبر. وإذا كان التعذيب باسم الدين مرفوضًا ومستبعدًا من ناحية العقيدة، فإنّ أنبياء الله الذين بُعثوا ليُحوّلوا أقوامهم إلى دين جديد لا يمكن أن يقبلوا بهذا التعذيب.. لأنّهم لو

قبلوا به لصارت رسالاتهم هراء وحماقة. ويخبرنا القرآن الكريم أنّ أتباع أحد الأنبياء تلقوا أذى في حياته.. واستمر الإيذاء واقعًا بهم مئات السنين بعد وفاته.. ومثل هذا الاضطهاد لا يمكن أبدًا أن يلقى القبول عند الله.

والقصة القرآنية عن أهل الكهف.. وهم المسيحيون الأوائل.. تحكي لنا أنّهم اضطُّهدوا لمدة ثلاثمائة عام. ولقد شاهدت بنفسي تلك الأماكن التي تعَذّب فيها أولئك المساكين.. ساحات مدرجة أُعدّت لهم كي يتصارعوا مع الثيران والأسود حتى الموت.. كانوا يُلقون بهم عراة أمام الوحوش الكاسرة الجائعة. كانت الوحوش تعوي ثمّ تنقض لتُجهز على المسيحيين المجردين من وسائل الدفاع. يجوِّعون الثيران أيامًا ثم يدفعون المسيحيين (المرتدين) أمامها. وتندفع الثيران الهائجة فتمزّق أجسام الضحايا بقرونها، وتحطّم أضلاعهم بأظلافها. وينقلب الرومان ضاحكين متهلّلين بعد هذا الاحتفال الدموي.. الذي انزلوا خلاله العقاب الملائم (بالمرتدين).. وبينما وقف (المرتدون) المساكين لا تقوى سيقانهم على حمل أجسامهم المرتجفة.. كانت قلوبهم تنبض قوية بالإيمان بالله.

استمر التعذيب ينزل بهم من حين إلى حين لمدة جاوزت ثلاثة قرون. كانوا يفرّون إلى المخابئ كلّما وجدوا إلى ذلك سبيلًا، ونزلوا إلى السراديب العميقة في باطن الأرض. وما تزال هذه المتاهات الجوفية قائمة إلى اليوم.. تذكرنا كيف عالج المسيحيون الحياة مع الحشرات والعقارب والثعابين.. مفضلين ذلك على حياة القهر مع (أئمة الدين) في عباءاتهم وملابسهم الموشاة الجميلة!

ويذكر القرآن بالإضافة إلى أصحاب الكهف فريقًا آخر من المسيحيين، آمنوا بالله وحده، أي ارتدوا بلغة قومهم.. فأنزلوا بهم عقوبة الإحراق بالنار. يقول القرآن:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ* وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ* وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ* قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ* النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ* إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ* وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ* وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ* الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سورة البروج:٢-١٠)

ومما يزيد هذه الشرور شناعة وقبحًا.. أنّ حماة الدين المزعومين هؤلاء.. هم في الواقع يمنعون الناس من عبادة الله، ويحسّ ضحاياهم بأشدّ الكروب، لأنّهم يُحال بينهم وبين العبادة، وهذا يُؤلمهم ألما يفوق آلام التعذيب البدني على قسوتها. يقول القرآن:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ (سورة البقرة:١١٥).

وإذًا، فالقرآن يرفض تمامًا فكرة الإكراه وكبت الحرية الدينية، ويبين أنّه إذا كان البعض يرتكبون جرائم الإكراه الديني.. إلا أنّ المؤمن الصادق في دعوته إلى الله لا يسلك هذا السبيل بتاتًا.

كلّ ما رُوي حتّى الآن يحكي قصة اضطهاد الأنبياء الذين بُعِثُوا قبل العصر الذي أراد الله أن يعمّ بنوره الدنيا كلّها. وعندما أشرقت شمس الحقيقة السرمدية في سماء الجزيرة العربية.. سرعان ما استضاءت أرجاء الأرض كلّها بنور الرسالة المحمّدية.

لطالما تشوّقت الدنيا إلى طلعة أعظم الأنبياء.. انقضت آلاف السنين، بُعث خلالها مائة وأربعة وعشرون ألفًا من النبيين.. وأخيرًا، جاء الإنسان الذي خُلقت الدنيا بأسرها من أجله.. مُظهِر المجد الكامل لخالقه.. الأعظم بين الأنبياء.. صاحب الدين الكامل.. ولكنّه أيضًا لم يسلم من الاضطهاد. لَقِيَ منه ما لا مثيل له سيدنا ومولانا.. محمّد رسول الله ﷺ تحمّل من الإيذاء والتعذيب والاضطهاد.. كلّ ما يتصور أن يتعرض له الأنبياء السابقون وأتباعهم.

أُلقي بالمسلمين الأوائل تحت لهيب الشمس المحرقة، ووضعوا على صدورهم أثقالًا من الأحجار المتّقدة.. سحبوهم في طرقات مكة كالحيوانات النافقة.. اعتزلهم قومهم، وحاصروهم، وحرموهم الطعام والشراب.. حبسوهم في سجون ضيّقة.. صادروا ممتلكاتهم.. فرقوا بينهم وبين أهليهم.. أسقطوا النساء الحوامل من فوق الإبل، ووجدوا المتعة والبهجة في موتهن المحقق.. مثّلوا بأجساد القتلى وقطعوها إربًا.. أكلوا كبد حمزة عمّ النبي ﷺ تشفيًا وانتقامًا.. أعملوا في الأجسام السيوف والحراب.. سلطوا الأراذل والرعاع والمجرمين ليرشقوا النبي ﷺ بالأحجار.. طارده الغلمان والسفهاء حتّى تخضبت حصباء الطائف بدمه الطاهر.. ألقوا على جسده الشريف فضلات الذبائح ونفاياتها.. ويومَ أُحُد، غارت حلقات المِغْفَر الحديدية في وجنته الكريمة، وكسرت بعض أسنانه.

سالت كلّ هذه الدماء باسم الدين.. وجرْم المسلمين أنّهم قالوا: ربنا الله. وقعت هذه المظالم والاضطهادات والتعذيب باسم الدين.. لأنّ أهل مكة

أدانوا النبي ﷺ وأصحابه (بالارتداد)، وسمّوه (الصَّابِئ).. تارك دين أجداده إلى دين جديد. اتّخذ أهل مكة من وسائل القمع والتعذيب ما يتذرّعون به للقضاء على هذا (الشر) القادم.. مثلما فعل أشياعهم من قبل. وتحمّل محمّد ﷺ مع صحابته كلّ ما نزل بهم بصبر وجلد زمنًا طويلًا، وأثبتوا للدنيا كلّها أنّ أعداء الدين هم الذين يرتكبون الشرور.. أمّا أهل الحق فهم برءاء من ذلك.

وها هو ذلك النبي.. الذي آتاه الله الدرجة الرفيعة والمقام المحمود، لا يُبدي نحو مضّطهديه إلا فائق المحبة والرحمة والصفح في مقابل شرهم وعدوانهم. وعندما جاءه النصر الحاسم، وتحققت له الغلبة التامة على مشركي مكة.. أصدر عفوًا عامًا شاملًا عمّن اضطهدوه.. فلا مذابح ولا انتقام، ولا اعتقال ولا إعدام.. بل هو إعلان قرآني رفيق: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُو أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (سورة يوسُف:٩٣).

في ذلك اليوم الأغرّ.. حظي بصفحه أعتى القساة، ونعِم بتسامحه من عذّبوا العبيد المساكين، ونال عفوه الذين سحلوا المسلمين في طرقات مكة. كان الغفران منه لمن رجموا المسلمين بالأحجار بمثل ما كان لأهل السلم.. بل وفازت به المرأة التي أكلت كبد عمّه!

لو أنّ صفحات تاريخ العالم منذ آدم عليه السلام فُقِدت من كتاب الوجود.. وضاع معها سجلات الاضطهاد ومواثيق الحقوق الإنسانية.. لكانت نظرة واحدة على سيرة النبي ﷺ فيها الكفاية وأكثر.. للتدليل على أنّ الدين الحق لا يتعلم منه أتباعه أية بغضاء أو اضطهاد أو قمع أو حجْر على الفكر.

لم تقتصر تعاليم النبي ﷺ على دعوة التسامح الديني فحسب، بل أصدر القرآن بلاغًا عامًا.. يتفق مع كون نبي الإسلام ﷺ هو حقًا وصدقًا ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء:١٠٨). وما الحاجة إلى الإكراه بعد أن ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، ولم يعد ثمة احتمال للخلط بينهما. ويبدو هذا الإعلان في ظاهره عجيبًا وفريدًا. فمن ناحية، كانت هناك سلطة استبدادية قد عقدت العزم بكلّ ما في وُسعها من حيلة على استئصال جماعة صغيرة من الناس بسبب (رِدّتهم)، وفي الناحية الأخرى، عندما تصبح هذه الجماعة (الصابئة) ذات قوة وشوكة.. إذا بالقرآن الكريم يقول لهم:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة:٢٥٧).

هذا الإعلان العام جاء في سورة البقرة.. التي نزلت بالمدينة على مدى سنتين أو ثلاث سنوات بعد هجرة الرسول ﷺ إليها.. وكان المسلمون قد تخلّصوا من اضطهاد أهل مكة، وصار لهم بأس ومنعة أيضًا. وأصبح بوسعهم أن يردوا على الاضطهاد والتعذيب والقهر بمثله، وإذا بالإعلان القرآني يذكرهم بالمنهج الإلهي الثابت: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. فهل هناك ما هو أعظم رحمة وأبلغ كرمًا من هذا البيان.. يجري على لسان نبي.. كان قبل سنتين أو ثلاث يتعرض لأشد الاضطهاد بتهمة (الارتداد) عن دين قومه؟

إنّ الذين يضطهدون الناس باسم الدين إنّما يجهلون جوهر الدين جهلًا تامًا، لأنّ الدين توجّه قلبي. إنّه ليس من أعمال السياسة، ولا ينخرط

أشياعه فيه على أنّه حزب سياسي. وليس الدين قومية ذات ولاء محدود، وليس قطرًا له حدود جغرافية.. إنّه انسلاخ يجري على القلب من أجل صالح الروح. إنّه يحدث هناك في أعماق القلب، حيث لا تصل إليه سيطرة السيوف. وإذا كان الاضطهاد باسم الدين هو النغمة المزعجة الرتيبة في تاريخ العدوان البشري، فإنّ حرية العقيدة هي الترنيمة الجميلة.. التي تتردد في جنبات القرآن المجيد. طلب القرآن من النبي ﷺ أن يردد على مسامع الناس توجيه الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (سورة الكهف: ٣٠).

ومن البديهي أنّ الحق موضوع قلبي، لا علاقة بينه وبين الإكراه. ما أن يدخل الحق قلب إنسان إلا ويستحيل على أية قوة أن تخرجه منه. لذلك يؤكد القرآن تأكيدًا جازمًا.. أنّه بعدما يتّضح الحق فالناس بالخيار: يقبلون أو يرفضون.

وعلاوة على هذا، وفي موضع آخر، يزيد القرآن الموضوع وضوحًا حيث يقول: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (سورة الإنسان: ٣٠).

وما من مادة في ميثاق حقوق الإنسان تفوق وضوح التعبير القرآني ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾.. فهو في صيغة تامة شاملة للتعبير عن حرية الاختيار. ومن العجب العجاب بعد كل هذا البيان والوضوح تجاسر بعضهم على الزعم بأنّ الإسلام يبيح استخدام الجبر في أمور الدين.

وفي سورة أخرى يطلب القرآن الكريم من النبي ﷺ أن يوضح موقفه الشخصي:

﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾، وأمّا أنتم أيُّها الناس.. ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ (سورة الزُّمَر).

ولـمّا كانت الحرية العقيدة الدينية.. حرية الإيمان والدعوة.. هي حجر الأساس للدين، ولـمّا كانت القوى المعادية للدين ترمي إلى قمع التحول من دين إلى دين، لذلك أكّد القرآن تأكيدًا قويًّا على حرية التحوّل هذه. وتنتهي سورة (الكافرون) بآية رائعة تضع قاعدة عامة لجوانب الحرية الدينية، وتبيّن موقف الدين الصادق من هذه القضية، وتقول في إيجاز.. ولكنّه بليغ جازم، وترفع شعار: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

وفي موضع آخر يشير القرآن إلى هذه القاعدة، موجّهًا خطابه إلى النبي ﷺ في تساؤل بلاغي، يستنكر فكرة النزوع إلى الجبر ويستبعدها تمامًا من مخيّلة المسلمين، فيقول:

﴿وَلَو شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يُونُس: ١٠٠)

إنّها مشيئة الله العزيز.. اقتضت أن يَفطِرَ الإنسان متمتّعًا بالحرية الكاملة في اختيار عقيدته الدينية.. إيمانًا أو كفرًا، قبولًا أو رفضًا، لا إكراه ولا قَسْر.. على الإنسان أن يستعمل ملكة العقل والفهم التي زوّده الله بها. ثمّ إن الإيمان على أيّة حال إنعام رباني.. يهبه الله لمن كان مستحقًّا له.

مائة وأربعٌ وعشرون ألفًا من النبيين.. بُعثوا إلى هذا العالم عبر القرون الطويلة.. أظهروا بتعاليمهم وأسوتهم أنّ حملة الهدي الإلهي تعرضوا للظلم والاضطهاد.. ولكنّهم لم يكونوا أبدًا من الظالمين. كان النصر حليفهم

الدائم، يَصِلون إلى القلوب بقوّتهم الأخلاقية وتأثيرهم الروحاني.. من دون أي سلاح مادي.

إنّها لمأساة حقًا.. أن يقوم كهنة مرسومون، ومشائخ محترفون.. باضطهاد الأبرياء باسم أنبياء الله تعالى.. الذين كانوا مضطهدين! إنّهم يحتكرون الدين مع أنّهم لا يعرفون عن حقيقته شيئا. وزعموا أنّهم، بإيذائهم خَلْق الله، وإشاعتهم أخبث الأكاذيب، وارتكابهم جرائم عنف أخجلت الإنسانية.. إنما (يدافعون) عن شرف الأنبياء. فعلوا كلّ هذه الفظائع قبل بعثة محمّد ﷺ.. وما زالوا يفعلون!

في أوروبا العصور الوسطى.. هبّ أتباع المسيح المزعومون.. باباوات وأساقفة، كرادلة وكهنة، وغيرهم من زعماء الكنيسة.. فكتبوا فصلًا داميًا في كتاب الإرهاب التاريخي باسم الدين.. فصلًا أطلق عليه (القديس) سانت أوجستين: (عقاب التطهير) الذي تُنزله كنيسة المسيح بالعصاة. واليوم يعترف المؤرخون المسيحيون بأنّ التطهير المقدّس ذاك الذي فعلوه باسم المسيح، كان عارًا على الكنيسة المسيحية.

في متحف الشمع بمدينة لندن، معرض عجيب، مؤثر ومرعب، يُجسّم ذلك التعذيب.. (تأسس هذا المتحف أصلًا في باريس عام ١٧٧٠م، وينسب إلى مدام تُوسُّو، ثمّ انتقل إلى لندن عام ١٨٠٢م). على جدران المعرض تماثيل شمعية لأناس مشهورين وغير مشهورين. فيه غرفة الرعب عبارة عن جبٍّ تحت الأرض تحتوي على تماثيل بلغت الغاية في الإتقان، حتّى لَكأنّ الزائر يراها حيّة تتنفّس. وكم من المرات توقف بعضهم أمام

موظف بشوش الوجه.. ليسأله عن الطريق، ولدهشته يكتشف أنّ الذي أمامه ليس إلّا دمية لموظف.

وفي المعرض تجد (أقنعة الموت)، صاغتها (مدام تُوسُّو)، بنفسها من الشمع على وجه ملك فرنسا لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت بعد أن أطاحت المقصلة (الجيلوتين) برأسيهما. وفيه أيضًا مشنقة (أصلية!)، ومعدّات التعذيب على أشكال وأصناف.. منها ما يقيّد الرقبة مع اليدين، وفلكة للقدمين، وعمود للجَلْد، ومقعد لتغطيس الضحية في الماء، وجهاز لشد العظام وخلعها، وسرير يدعى سرير (بروكر ستينر) لسحب أطراف الضحية أو تقصيرها حسب مقاسه، والصلبان وحبال المشانق.. وغيرها الكثير. بعض هذه المعروضات تبدو فوق الاحتمال البشري، لذلك يستروها عن الأطفال وذوي الحساسية من الكبار.

إنّه عالم جد غريب، يرقى إنسانٌ فيه حتّى يبلغ قمة النبوة.. فيتخاطب مع خالقه، وينحط إنسان آخر إلى درك سحيق فيكون كاهنًا، ينظر بعين الريبة إلى (جان دارك) ويتشكك في رؤياها للملائكة، بل قد يزداد هذا الكاهن انحطاطًا ليكون قاضيًا في محاكم التفتيش!

تحكي أدوات التعذيب في معرض (مدام توسّو) عديدًا من المآسي التي جرت في محاكم التفتيش الأسبانية والفرنسية التي سُمّيت أيضًا محاكم الاعتراف.. حيث حوكم الأبرياء بتهمة الارتداد و(التجديف)، وأُكرهوا على الاعتراف بأنّهم ارتدوا عن (الدين الحق). ومن يرفض الاعتراف فليس أمامه إلا ضرب السياط، أو خلع الأعضاء، أو الوضع على (الخازوق)، أو

الكي بالنار، أو الإحراق، أو القتل من غير محاكمة.. فلا مناص للضحية المسكينة من الاعتراف.. الذي يعقبه الموت ميتة تعيسة.

أصحاب المقامات الكنسية الرفيعة هؤلاء، في أرديتهم المبهرجة.. وهم يتلذّذون بتعذيب المسيحيين الأبرياء.. يعيدون إلى الذاكرة مشهد المسيح عليه السلام، وتاج الشوك يكلّل رأسه، ودماؤه تنزف على الصليب.. يصيح بأعلى صوته: "إيلي إيلي، لم تركتني؟" (متّى ٢٧:٤٦). وأثناء طقوس العشاء الرباني.. يقوم هؤلاء القوم بتمثيلية ترمز إلى أكل لحم المسيح عليه السلام وشرب دمه، ولكنّهم لا يتذكّرون أن الفريسيين طلبوا من بيلاطس النبطي، الحاكم الروماني، أن يصلب المسيح لكونه (مرتدا) هجر دينهم. غير أنّ عملية صلب المسيح البغيضة لتتضاءل كثيرًا، من ناحية تكنولوجيا التعذيب.. إذا ما قورنت بما جرى بأمر محاكم التفتيش المسيحية.

وحقَّ للمسلم أن يحس بشعور الراحة ممزوجًا بشيء من الزهو.. لأنّ الإسلام عندما رفع شعار ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ سدّ نهائيًا باب كلّ تلك الشناعات والفظائع في وجه من يرتكبوها باسم الدين. ولكن ما أسرع أن يتبدد هذا الشعور الجميل.. وينغض المسلم رأسه خجلًا.. لمرأى (علماء آخر الزمان) وهم ينافسون رجال الكنيسة المسيحية في القرون الوسطى.. ويستبقون معهم في ارتكاب الفظائع باسم الدين، ويبتكرون ذرائع جديدة لكبت الضمير، وقمع حرية الفكر. ويتشدق هؤلاء (العلماء) بأنّهم يذودون بذلك عن شرف النبيّ صلى الله عليه وسلم.. الذي أرسله الله تعالى ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

يزعم هؤلاء (العلماء) أنّهم الرحمة المجسّمة.. مع أنّهم قلوبهم خِلْو من الحنان والشفقة. إنّها قلوب تفور بنار الغضب.. حتّى أصبح استعمال العنف والجبر أساسًا في عقيدتهم الدينية. أنزل الله تعالى ماء وحيه الطاهر لتبترد به طباعنا، وتهدأ حدّتنا، ولكنّهم، باسم الله ووحيه، يوقدون نار الكراهية والحقد في قلوب البسطاء من أتباع أمير السلام ﷺ.. سيدنا محمّد الذي طهّر بدمه الزكي كلّ أرجاء الجزيرة العربية من الهمجية والتوحش. إنّهم اليوم يحرضون على قتل الأبرياء العُزّل.. باسم من كان يحمي الضعفاء ومن لا حيلة لهم. إنّهم اليوم يُغرون العامة لنهب بيت المسالمين.. باسم من كان يحافظ على شرف النساء وإن كُنّ من نساء المجرمين. إنّهم اليوم يفصمون عرى زيجات سعيدة هانئة لنساء مسلمات، ويزعمون أنّها سفاح حرام. إنّهم اليوم يهدمون المساجد على رأس طائفة قليلة العدد، وَهَبَت حياتها لنشر كلمة التوحيد (لا إله إلا الله، محمّد رسول الله)، يفعلون ذلك باسم من بنى أول مسجد في المدينة، وسمح لنصارى نجران أن يتعبّدوا فيه يوم أحدهم المقدّس. إنّهم اليوم يدمّرون المساجد ويمحون كلمة التوحيد منها، باسم مَن علّم أتباعه احترام المعابد والكنائس.

ماذا يقول النبي ﷺ يا تُرى، لو اطّلع على (علماء السوء) من أمّته، وسمع بذيء القول يخرج من ألسنتهم في حق أئمة الحق، والشتائم والقبائح والإفك يرمون بها الشرفاء، بل والنساء العفيفات المحصنات؟

هل يدور بخلد أحد من المسلمين، ولو للحظة قصيرة، أنّ النبيّ ﷺ نصح (علماء) أمّته بإلقاء الخطب الاستفزازية النارية الهدّامة؟ أو أنّه ﷺ أمرهم

بإصدار توجيهاتهم الشيطانية تحرّض على إحراق القرى فوق رؤوس أهلها الوادعين المساكين الفقراء؟ وإذا لم يَكْفِ هذا، فيوصي حضرته (علماء) أمّته بمعاملة من يخالف آراءهم من المسلمين على أنّهم من الكافرين؟ وهل أباح لهم أمير السلام ﷺ قتل مخالفيهم رجالا ونساء، وحرق بيوتهم، ونهب متاجرهم، وهدم مساجدهم.. للقضاء على (ردّتهم)؟

هذه المسألة جديرة بأن يتدبّرها الجميع بجدية واهتمام، وينبغي على المسلمين أن يدرسوا موقف هؤلاء (العلماء).. لأنّ الاضطهاد، والتعذيب، والقتل وإحراق المساكن، وهدم المساجد، لم يكن أبدًا من سنّة النبي ﷺ، يشهد كلّ حجر في طرقات مكة سُحل عليه (الصابئون) المؤمنون، وكلّ حبة من رمال الصحراء العربية، عُذّب فوقها (المرتدّون) المسلمون، وكلّ حصاة من حصى الطائف تندت بدم النبي ﷺ، تشهد كلّها بأنّ مولانا العظيم، المبعوث رحمة للعالمين، لم يدعُ أبدًا إلى إيمانٍ بالقهر، ولم يأمر بحرق بيت من بيوت العبادة باسم العبادة، ولم يسمح بقذف النساء في شرفهنّ باسم الشرف. إنّ المسلمين يطأطئون رؤوسهم اليوم خجلا، وتصرخ أرواحهم في وجه (أئمة) الدين المعاصرين، من يدعو منهم إلى العنف باسم النبي ﷺ، قائلة: لقد افتريتم على تعاليم الإسلام، وكذّبتم على سنّة نبينا ﷺ.

الفصل الثاني

رأيان متناقضان..

الرأي الأوّل

"بعد ثلاثة عشر عامًا، عندما فشلت كلّ وسائل الإقناع، استلّ النبي ﷺ سيفه.. ذلك السيف الذي أماط الشرّ والأذى، وأزال النجس والدرن من النفوس. بل وفعل السيف ما هو أكثر من ذلك، لقد أبرأ العُمي، فصاروا قادرين على رؤية نور الحق، وشفاهم من كبرهم.. ذلك الكبر الذي منع الناس من قبول الحق. فانحنت الرقاب الغليظة، والرؤوس المتغطرسة في اتضاع وانصياع."

(مولانا أبوالأعلى المودودي)

"دعا محمّد إلى الإسلام.. والسيف في إحدى يديه، والقرآن في اليد الأخرى."

(بروفيسور ولفرد كانتول سميث)

الرأي الثاني

"النقّاد عميان.. فلا يستطيعون رؤية أنّ السيف الأوحد الذي استعمله محمّد ببراعة.. كان سيف المرحمة، والعطف، والمودّة، والتسامح، سيفًا قهر أعداءه، وطهّر قلوبهم. كان سيفه هذا أحدّ من الحسام الفولاذي."

(جياندرا ديف شرما شاستري)

رأيان متناقضان.. بشأن الطريقة التي انتشر بها الإسلام في العالم. النقّاد والمستشرقون منهم على وجه الخصوص.. يقول بأنّ الحروب التي خاضها نبي الإسلام ﷺ كانت حروب عدوانية، وأنّ من دخلوا الإسلام أُدخِلوا بالقوّة الجبرية. ويرى المؤرخون الموضوعيون غير المنحازين.. أنّ الرأي السابق ليس له سند من الحقائق، وأنّ النبي ﷺ لم يستعمل الجبر والإكراه في الدعوة إلى الإسلام. وأنّ معاركه الحربية كلّها كانت معارك دفاعية، وأنّ انتشار الإسلام كان بفضل ما تمتّع به النبي ﷺ من قوى روحية وأخلاقية.

وللأسف.. هناك من قادة المسلمين من يعتنقون الرأي القائل بأنّ الإسلام انتشر بحدّ السيف، ويقسمون بعثة النبي ﷺ إلى فترتين: مكية ومدنية. وعند أصحاب هذه المدرسة الفكرية كان النبي ﷺ في الفترة المكية ضعيفًا عاجزًا، لذلك سعى إلى التوافق الذليل وصولًا إلى المعايشة السلمية. ولكنّه ما إن اشتدّ ساعِده في المدينة حتى لجأ إلى السيف. ولولا هذا الأسلوب.. ما حدث ذلك الانقلاب الروحي في جزيرة العرب، وما وجد الإسلام سبيله للانتشار. مولانا أبوالأعلى المودودي من روّاد هذا الفكر، المناصرين لهذا الرأي، ففي كتابه (الجهاد في الإسلام) يقول:

"لقد دعا رسول الله ﷺ العرب إلى الإسلام ثلاثة عشر عامًا، واتّبع معهم كلّ طريقة ممكنة للإقناع، وساق إليهم حُججًا وأدلّة لا مراء فيها، وأظهر لهم المعجزات، وقدّم لهم سيرته مثالًا حسنًا للفضيلة والتقوى. وبالاختصار، فإنّه حاول معهم كلّ وسائل الاتصال.. ولكنّ قومه رفضوا قبول الإسلام."

وإنّه ليحزنني أن أقتبس لكم تتمة الفقرة.. ولكن بيان الموضوع يتطلب سردها، مضى المودودي يقول: "فلمّا فشلت كلّ وسائل الإقناع.. استلّ النبي ﷺ سيفه.. ذلك السيف الذي أماط الشرّ والأذى، وأزال النجس والدرن من النفوس. بل وفعل السيف ما هو أكثر من ذلك، لقد أبرأ العُمي، فصاروا قادرين على رؤية نور الحق، وشفاهم من كبرهم.. ذلك الكبر الذي منع الناس من قبول الحق. فانحنت الرقاب الغليظة، والرؤوس المتغطرسة في اتضاع وانصياع. وحقّق الإسلام في بلاد العرب وغيرها من البلاد انتشارًا سريعًا، حتى إنّه في مدى قرن واحد من الزمان دخل في الإسلام ربع أهل الأرض. حدث هذا التحوّل لأنّ سيف الإسلام مزق الحُجُب التي كانت تغطي قلوب الناس."

العبارة السابقة مخزية حقًّا خِزيًا مضاعفًا.. لأنّها صدرت من (عالم) مسلم، ادّعى بأنّه (مزاج شناس رسول).. أي أنّه في انسجام تام مع الرسول ﷺ روحًا وفكرًا.. حتى أنّه اكتسب سلطانًا في معرفة المغزى الحقيقي وراء كلمات النبي ﷺ وأفعاله. وهذا ادّعاء لو صح.. لأتاح لهذا المدعيّ تمثيل النبي ﷺ.. بقدر يساوي، أو ربما يزيد عن حظ النبي ﷺ في فهم كلام

الله تعالى! وهذا يعنِي أنّ فهم مولانا المودودي فهم مأساوي بما يجلّ عنه الوصف.. لأنّه صادر من زعيم مسلم.. يردد مقولة لا أساس لها.. ويؤكدها خصوم الإسلام والمستشرقون المنحازون، الذين يتهمون النبي ﷺ باستخدام القوة الجبرية لإدخال الناس في الإسلام. قد يبدو أسلوب مولانا وكأنّه يمجّد الإسلام، ولكنّه في حقيقة الأمر يوافق ويصادق على اتّهامات النقّاد الأوروبيين ضدّ الإسلام.

قال دوزي R.Dozy:

"ونشر (جنرالات) محمّد الإسلام بالسيف في يد والقرآن في اليد الأخرى."

ويؤكّد سميث (Smith):

"إنّ محمّدًا نفسه وليس كبار قوّاده، هو الذي دعا إلى الإسلام بالسيف."

وكتب جورج سيل (George Sale):

"عندما زاد عدد أتباع محمّد ادّعى أنّ الله سمح له بمهاجمة المشركين، ليقضي على عبادة الأصنام، ويوطّد أركان الدين الحق."

أمّا القس دكتور فاندر (Dr. C. G. Pfander)، فقد اشتغل بالتبشير المسيحي بين مسلمي الهند في أواخر القرن التاسع عشر وكتب منشورات جدلية، أثارت اضطرابًا عظيمًا، أراد بها على حد تعبيره أن يكشف (نبي الإسلام المزيف). وفي أحد منشوراته هذه قال:

١. دعا محمّد إلى دينه الجديد ثلاثة عشر عامًا بأسلوب استرضائي وبصبر شديد.

٢. تحول في المدينة إلى (نبي السيف)، ومنذ ذلك الحين كان السيف أقوى حجج الإسلام.

٣. لو تأملنا مسلك أتباع محمّد لتبين لنا أنّهم لا يحرصون على اتباع قواعد دينية أو أخلاقية.. فإنّ إلههم لم يطلب منهم سوى أمر واحد: قاتلوا في سبيل الله بالسيف والسهم والرمح والخنجر.. واستمروا في القتل.

وبعد هذه المقدمة، ينهي د. فاندر منشوره بقوله:

"عليكم أن تختاروا بين يسوع.. كلمة الرب، وبين محمد بن عبد الله، بين من وهب حياته للعمل الصالح، وبين من كرّس حياته للسيف."

وسار على نفس هذا المنهج سبرانجر (Aloy Spranger)، وكوبي (Henry Copey).. وكثير غيرهما من نقاد الإسلام.. في تهجمهم عليه وعلى النبي ﷺ.

وذهب إرفنج (Washington Irving) خطوة أبعد، إذ رسم على غلاف أحد كتبه رسمًا خياليًا للنبي ﷺ ممسكًا بسيف في إحدى يديه والمصحف في اليد الأخرى.

فإذا قارنّا بين ما ذكرناه آنفًا.. وبين العبارة المودودية التي أوردناها في صدر هذا الفصل، نقلًا من كتابه (الجهاد في الإسلام)، لَتَكشَّف أنّ نقاد الإسلام على وفاق تام معه. مولانا المودودي والمستشرقون معًا.. يدًا في يد.. يؤكدون بأنّ الإسلام ذو طبيعة عنيفة. وبالرغم من اعتقاد المودودي بعنف الإسلام فإنّ مولانا من المؤمنين به.. في حين يكفر به المستشرقون!

وبغض النظر عن الصياغة اللغوية.. ليس ثمة فرق بين الفقرات المأخوذة من كتاب مولانا وبين نظيراتها المنقولة عن القس فاندر آنفًا. ولكن على المرء أن يظهر الإجلال للكاتب (المسلم)، ويبدي السخرية من الناقد الحقود اللدود!

وملاحظات المستشرقين التي يدسونها لبث الشك حول نبي الإسلام ﷺ ليست مدهشة بقدر ما هي مسيئة. قد تصدر عنهم تلك التعليقات بسبب الجهل، ولكنّ الحقد وتعمد الإساءة كان الدافع الغالب. إنّ العداء للإسلام يطغى على موضوعية أشدّ المؤرخين اعتدالا.. ولكنّ المدهش والمؤلم حقًّا أن تصدر تلك الكتابات من مسلمين.. يدعون بأنّهم أتباع مخلصون للنبي ﷺ.. ثمّ إذا بهم يصوّرونه، جهلًا منهم أو مكابرة، وكأنّه واحد من الهمج ممتشق سيفه.. ليُكره الناس على الدخول في دينه أو يغزو بلادهم!

لم يقتنع مولانا المودودي بالجمال الذاتي الأصيل في دين الإسلام، ولم يلحظ قدرة الإسلام على غزو القلوب بسلطانه الروحي.. لا في الماضي ولا في الحاضر.. فقال:

"إنّ العلاقات والروابط الإنسانية متشابكة إلى حد لا يسمح لأي حكومة أن تتصرف بحريتها الكاملة وفقًا لمبادئها الخاصة.. ما لم تكن تلك المبادئ عينها نافذة في الدول المجاورة. ومن ثَم فإنّ الجماعة الإسلامية لن تقنع بإقامة دولة إسلامية منفردة في منطقة واحدة، بل عليها السعي.. بقدر ما تسمح لهم مواردهم.. للتوسع في كل اتجاه، فمن ناحية تنشر

عقيدتهم، ومن ناحية أخرى يدعون الأمم جميعًا للدخول في دينهم.. لأنّ خلاصهم متوقف على هذا الدين. وإذا توفر للدولة الإسلامية ما يكفي من (الاقتدار) فلتحارب وتدمر الحكومات غير المسلمة، وتقيم بدلًا منها حكومات إسلامية."

ومولانا المودودي يؤيد السير وليم موير (Sir William Muir)، في آرائه الملتوية عن النبي ﷺ وعن الإسلام. ففي كتاب عن حياة النبي ﷺ.. كتب موير، بناء على طلب من القس د. فاندر، ليفضح (نبي الإسلام المزيف).. يقول:

" لم تعرف الدنيا حتى اليوم.. ما هو أشدّ عداوة للحضارة والحرية والحق من سيف محمّد والقرآن."

ولعلّ الزعيم الهندوسي الكبير مهاتما غاندي.. قد تأثر في أيّامه الأولى بمعلومات مشوهة عن الإسلام كتلك التي اقتبسناها آنفًا من أقوال المستشرقين ومولانا المودودي، فقال: "وُلد الإسلام في جو من العنف.. وكان السيف قوته الحاسمة، ولا يزال الإسلام كذلك."

لكن مهاتما غاندي كان مراقبًا حاد البصيرة، ولذلك صحّح نفسه وكتب في مجلة "يونج إنديا" (Young India) يقول: "كلما توسعت في دراستي للإسلام كلما تكشف لي أنّ قوة الإسلام لم تعتمد على السيف."

وهناك في الهندوس والآرياسماج من درسوا الإسلام بموضوعية، ووافقوا غاندي على (اكتشافه). قال باندت ديف شاستري (Pandit Gyanandra Dev Sharma Shastry).

"نقاد الإسلام المتحيزون، وخصوصًا من يسعون لإثارة الفتنة في البلاد بين الهندوس والمسلمين، يقولون إنّ حضرة محمد.. بعد أن حاز السلطان في المدينة.. لم يستطع أن يحتفظ بقناع الرحمة والشفقة الكاذب، فقد استخدم القهر والعنف، وصار نبيًّا سفاحًا، كي يحقق هدف عمره من السلطة والجاه والثراء.. وفقد صبره على مثله الأعلى في الاعتدال والصبر. هذا الرأي صادر عن مراقبين متحيزين متعصبين، يتعمدون الإساءة، غطت بصائرهم غشاوة الجهل، يرون النار بدلًا من النور، والقبح في مواطن الجمال، والشر في محل الخير. يشوهون كل مزية طيبة، ويعرضونها على أنّها رذيلة عظمى. إنّهم في الواقع يعكسون فساد نفوسهم. النقاد عميان.. فلا يستطيعون رؤية أنّ السيف الأوحد.. الذي استعمله محمّد ببراعة.. كان سيف المرحمة والعطف والمودة والتسامح. سيف قهر أعداءه وطهّر قلوبهم. كان سيفه هذا أحدّ من الحسام الفولاذي."

احكم أنت أيّها القارئ المنصف.. فليس عندي تعقيب!

فقط نتمنّى لو كان مولانا المودودي، وهو من أتباع النبي محمّد ﷺ.. نعم، نتمنى لو أنّه كان منصفًا مع النبي ﷺ كما أنصفه بحق واحد من أتباع كرشنا! لقد اعترف غير المسلمين.. الذين درسوا تاريخ الإسلام، بأنّ النبي ﷺ كان شهمًا، رؤوفًا، رحيمًا، بل وكان مثالًا كاملًا للفضائل البشرية. كتب هندوسي آخر.. محرر في جريدة "سات يوباديش" (Sat Upadaish):

"يقول بعض الناس أنّ دعوة الإسلام كانت بالسيف، ولكنّنا لا نستطيع الموافقة على هذا الرأي.. لأنّ الناس سرعان ما ينبذون ما استكرهوا عليه،

ولو أجبر الناس على الإسلام ما بقي في العالم مسلم واحد حتّى اليوم. لماذا؟ لأنّ نبي الإسلام كان ذا قوة روحانية.. أحبّ الإنسانية، وهداها بأسوته الحسنة نحو الخير المطلق."

وحركة آرياسماج معروفة بعدائها للإسلام، وكان مؤسسها (سوامي ديانند) شديدًا في انتقاده على الإسلام والنبي ﷺ.. ومع ذلك فإن الأستاذ (رام ديف) الهندوسي في اجتماع نظمته آرياسماج في لاهور، قال: "وعندما كان حضرة محمد في المدينة، جمع حوله العرب مسحورين.. وملأهم قوة روحانية، قوة تجعل الرجال كالآلهة. والزعم بأنّ الإسلام قد انتشر بقوة السيف ليس بصحيح، فالحقيقة الواقعة أنّ السيف لم يرفع أبدًا لنشر الإسلام. ولو كان من الممكن نشر الدين بالإكراه والجبر.. فليجرب أحدهم ذلك اليوم."

وهذه العبارة الأخيرة تحدٍ لا يستطيع أحد أن يقبله، حتى ولو كان مولانا المودودي نفسه.. فما من سيف بقادر على تغيير ما في القلب، أو تبديل الإيمان كفرًا.

لقد بعث الله سلسلة طويلة من الأنبياء قبل نبي الإسلام ﷺ، ومن الحقائق التاريخية أنّ كلّ نبي لقي معارضة بالقول والفعل، وما من نبي دعا إلى دين حق إلا وقاوموه بالسيف.. ومع ذلك كان الدين الحق ينتشر.. وفي كل مرة كان السيف يفشل في تعطيل مسيرة الحق. وإذا كان جميع الأنبياء وأتباعهم قد أفلحوا في الصمود أمام قوة السيف، فكيف يمكن لمحمد ﷺ أن يسلك طريقًا مخالفًا لطريق الأنبياء، ويعمد إلى استعمال

السيف وهو أداة القهر.. بدلًا من الاعتماد على قوة الحق!؟ سبحانك ربي، إنّ هذا لظلم عظيم وإفك مبين.. أن يُتّهم النبي ﷺ باستخدام الإكراه لتغيير عقائد الناس!!

عالم آخر، غير مسلم، هو الدكتور ليتز (Dr. D. W. Leitz)، يدفع هذه التهمة الباطلة ومستندًا إلى حجة من القرآن فيقول:

"إنّ كلّ ما يساق من أدلة لبيان أنّ الغرض من الجهاد هو نشر الإسلام بالقوة الجبرية ينقضه القرآن.. حيث يقرر بأنّ الهدف من الجهاد هو حماية الكنائس والمعابد والصوامع والمساجد.."

يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (سورة الحج: ٤١).

بعد هذا الدفاع الناصع عن النبي ﷺ، ماذا يا ترى جواب أولئك المنتسبين إلى الإسلام.. الذين يتهمونه باستعمال السيف؟ نودّ أن نسمع جوابهم في ضوء التساؤل القرآني: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (سورة محمد: ٢٥). لا شك وأنّ مولانا المودودي.. صاحب التفسير الضخم (تفهيم القرآن).. قد قرأ هذه الآية مرات عديدة، أفلم يخطر بباله أنّ تفسير القرآن لأغراض سياسية لا بدّ وأن يوقع المفسّر في مهاوي الضلال؟!

ثم يستطرد مولانا المودودي:

"كانت هذه هي السياسة التي انتهجها النبي ﷺ، وسار عليها خلفاؤه الراشدون. كان لزامًا على الحزب الإسلامي أن يثبت أقدامه في جزيرة

العرب حيث ابتدأ تكونه. وبعد ذلك أرسل النبي ﷺ دعواته إلى الأقطار المجاورة، ولكنّه لم ينتظر قبول دعوته، فما أن ملك القوة حتى بدأ الصدام مع الإمبراطورية الرومانية. وبعد النبي ﷺ صار أبوبكر قائد الجماعة، فهاجم الروم والفرس كليهما، وفي النهاية أحرز عمر النصر.."

هذا القول في الواقع هو بمثابة إعلان حرب على جميع الدول غير الإسلامية المجاورة، وبحسب قوله هذا، فإنّ هذه الدول ستبقى آمنة فقط ما دامت الدولة الإسلامية ضعيفة. ولو كان كاتب هذه الفقرة مؤرخًا ماركسيًا من الحزب الشيوعي لنُبذ قوله، وما استحق أن يُعاود المرء النظر إليه.. ولكنّه الرأي المعتبر.. من زعيم مسلم.. ذي منزلة مرموقة.. في درجة مولانا المودودي! وهذا في حد ذاته ما يجعله بالتأكيد أشدّ إهانة للنبي ﷺ من كلّ ما كتبه نقاد الإسلام الألداء من أمثال موير وفاندر وسميث وغيرهم.

وقد ترجمت الفقرة السابقة عن الأصل الذي كتبه مولانا في لغة الأوردية وقد تعمد المودودي أن يستعمل كلمة (الحزب الإسلامي)، وكأنّه ينحط بالأمة الإسلامية إلى مستوى الحزب السياسي. إنّه يعرف تمامًا الفرق بين الحزب والأمة، لأنّه في كتاب آخر قال: "استعمل القرآن كلمة أمة مرادفًا لكلمة حزب." أمّا وقد سمّى المسلمين حزبًا سياسيًا، فإنّ مولانا، ربما عن غير وعي، والأغلب عن عمد، ساوى بين النبي ﷺ وبين أي زعيم لحزب سياسي.. ناسبًا إليه بذلك أخلاقيات رجل السياسة، وإلا كيف يفسر المرء الفقرة التالية مما كتبه مولانا: "فما أن ملك القوة حتى بدأ الصدام مع الإمبراطورية الرومانية... إلخ."

من المذهل حقًّا أن يتجاسر عالم مسلم على قول يُوحي، ولو ضمنيًّا، بأنّ النبي ﷺ يرتكب جريمة الغزو العسكري على طريقة (هتلر). نعوذ بك اللهم من ذلك! كان النبي ﷺ أمير السلام، ولم يكن أبدًا غازيًّا منتهكًا للحرمات. وإنّما مولانا المودودي هو الذي كان مشغوفًا بالقوة السياسة، فاصطبغ بها فهمه للتاريخ الإسلامي، للأسف.

الإسلام ليس بحاجة إلى أساليب السياسة لينطلق. كان المسلمون في البنغال، بنغلاديش اليوم، أقلية ضئيلة جدًّا في منتصف القرن الثامن عشر، عندما استولى عليها البريطانيون من يد المغول. وفي عام ١٩٤٧م استقلت البنغال، وإذا المسلمون فيها أغلبية عظمى. لم يكن للمسلمين أي نفوذ سياسي في المنطقة، ولم تحدث هجرات سكانية من الشمال إلى الجنوب خلال الحكم البريطاني.. ولكن حدثت هذه الزيادة في عدد السكان المسلمين نتيجة للحوار السلمي مع التجار الصوفية، والدعاة الطوافين، وأئمة المساجد في القرى.

ولتوماس أرنولد (Thomas Arnold)، تعليق على هذا الموضوع له شأنه، قال:

"لقد حاز الإسلام أعظم انتصاراته وأبقاها في مجال الدعوة.. في أوقات وأماكن كان نفوذه السياسي بها في أضعف حالاته."

ولعل مولانا المودودي لم يقرأ شيئا عن التاريخ الإسلامي في البنغال وماليزيا وإندونيسيا.. وإنّما كان مفتونًا بالغزوات التركية والأفغانية والمغولية.. ولم يكن لديه وقت كاف ليلحظ أنّ الدولة الإسلامية الكبرى في عالمنا

(إندونيسيا) لم تطأها قدم غاز مسلم، ولم يحدث بها قتال أو عمل من أعمال العنف. وهكذا كان الحال في ماليزيا أيضًا.

ومن الواضح أنّ النبي ﷺ بريء.. لم يستعمل سيفه قط إلا للدفاع الشرعي عن النفس، وذلك بعدما تجاوز المعتدين حدّ الاحتمال. وهذا ما قاله أحد المراقبين من السيخ حول هذا الموضوع: "منذ البداية وأعداء النبي يجعلون الحياة عسيرة عليه وعلى أتباعه، ولذلك طلب النبي من المسلمين أن يغادروا وطنهم ويهاجروا إلى المدينة. لقد فضّل النبي الهجرة على مقاتلة قومه. ولكنّه عندما اشتدّ بهم الاضطهاد حتى فاق الاحتمال حمل النبي السيف دفاعًا عن النفس. إنّ من يحسبون بأنّ الدين ينتشر بالقهر أغبياء، لا يعرفون سُبُل الدين ولا سُبُل الدنيا.. إنّهم يفاخرون باعتقادهم هذا لأنّهم بعيدون بعدًا شاسعًا عن معرفة الحقيقة." (عن ناوان هندوستان، دلهي ١٧-١١-١٩٤٧).

يا ترى.. من هو أكثر معرفة بالمصطفى ﷺ : هذا السيخي، أم مولانا المودودي.. (مزاج شناس رسول).. ذو الانسجام التام مع النبي.. روحًا وفكرًا؟!

الفصل الثالث

رد الفلسفة المودودية

بعد أن فشلت حركة (الخلافة) الإسلامية بالهند في أوائل العشرينيات من هذا القرن.. اتجهت حركات النهضة الدينية الهندوكية اتجاهًا عدوانيًّا. تضافرت حركة (هندوماهسبها).. التي أسسها (بانديت مَدَن موهن ملافيبا) في (هاردوار) عام ١٩١٤.. مع حركة (آرياسماج).. تحت اسم (شدّهي)، وقامت بحملة استهدفت (تطهير) المسلمين واستنقاذهم من عقيدة الإسلام.. وذلك في إقليم بنجاب والمقاطعات المتحدة وإقليم (دكن) وأجزاء أخرى من الهند.. وأثارت عصابات الهندوس أعمال شغب متبادلة، لأنّهم كانوا يجبرون المسلمين على غسل (نجاستهم) بأن يغمروهم في نهر أو حوض للمياه. وفيما بين عامي ١٩٢٢ إلى ١٩٢٦م، وقَع ما يزيد على مائتي صدام عنيف بين الهندوس والمسلمين، وكثرت هجماتهم بالقول والكتابة على الإسلام وعلى النبي ﷺ. وفي غمرة حماسهم الديني شنّ كتّاب حركة (شدّهي) حملات بذيئة على النبي الكريم ﷺ، وكتب أحد

دعاة (آرياسماج) يدعى (باندت كاليتشاران) سيرة للنبي ﷺ أكّد فيها مزاعم دنيئة عن فجوره (والعياذ بالله!) وتعدد زوجاته.. وذلك لكي يصحح بزعمه معالم التاريخ! كما أصرّ في كتابه (حياة عجيبة) على أنّ الإسلام انتشر بالسيف، وأنّ المسلمين جميعًا نفوسهم مفطورة على النهب والحرق والاغتصاب.

وفي مايو عام ١٩٢٤.. نشر صاحب مكتبة في لاهور يدعى (راجبال) نشرة بالأوردية كتبها مؤلف مجهول الاسم، ينتقد فيها النبي ﷺ، وسمى النشرة (رنجيلا رسول) أي النبي اللعوب Play Boy.. يشير فيها إلى أنّ مؤسسي الديانات مرتبطون بمجموعة من الأفكار والرموز. وعلى سبيل المثال ذكر أنّ مؤسس (آرياسماج) سوامي دياناند.. عظّم التبتل وجعل إصلاحاته متطابقة مع (الفيدا).

وكذلك زعم أنّ سيرة نبي الإسلام وديانته كانت وثيقة الصلة بالعلاقات النسائية. وهبّ شابان مسلمان فقتلا الناشر، مما أدّى إلى شغب بين الهندوس والمسلمين.

وكتب هندوسي آخر مقالة بعنوان (رحلة إلى الجحيم).. صوّر فيها النبيّ ﷺ كأنّه في النار، وأفاض في شرح عذابه و(خطاياه)!

قام المسلمون الأحمديون على الفور، وكان ذلك في الهند قبل التقسيم، ونظّموا الجهود، وهزموا حركة (استرداد المسلمين) هذه في عُقر دارها. ومضى إمام الجماعة الإسلامية الأحمدية وقتئذ.. حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد.. وأخذ خطوة إيجابية أبعد من ذلك.. فقرر إقامة مؤتمر

للأديان، يجتمع فيه قادة الديانات المختلفة، كي يبينوا للناس عقائدهم، وبذلك ينزعون حُجُب الجهل والتعصّب. وبالفعل، عُقِد مؤتمر سنوي خُصص لهذا الغرض، وسميّ (يوم مؤسسي الديانات). وفي هذا اليوم، يمكن للمتحدث المسلم أن يتكلم عن عظمة كرشنا أو بوذا، وبوسع البوذي أو الهندوسي أن يتكلم عن كمال نبي الإسلام ﷺ، وبذلك يتم تصحيح سوء الفهم الذي أحدثه أصحاب الدعايات.

وخلال هذه الحقبة التعيسة، الحافلة بالافتراءات والكراهية.. كان موقف المسلمين الأحمديين يتلخص في إعلام غير المسلمين، وتقديم رسالة المحبة والسلام.. التي جاء بها نبي الإسلام ﷺ إلى هذه الدنيا. ذلك لأنّ تبادل الاتهامات والتهكم اللاذع فيما بين الطوائف لا يعين على الدعوة الدينية.. بل إنّ التركيز على النواحي الطيبة في الدين أجدى نفعًا.

ولقد حثّ إمام الجماعة الإسلامية الأحمدية حكومة الهند، البريطانية يومئذٍ، على تشديد قبضة القانون من أجل حماية كرامة القيادات الدينية، وسلم حضرته مذكرة بهذا الشأن إلى حاكم إقليم البنجاب، وليم هايلي، الذي أوصى الحكومة بتعديل القانون بحيث يحظر نشر السخافات التي تسيء إلى المشاعر الدينية. وقبلت الحكومة ما جاء في التوصية، وأُضيفت مادة جديدة إلى قانون العقوبات الهندي تجرِّم إهانة أو محاولة إهانة المعتقدات الدينية لأي طائفة من الشعب، وأجازها المجلس التشريعي عام ١٩٢٧.

ولكنّ مسلمي الهند في ذلك الحين كانوا قلقين ساخطين، واستبد الغضب بخطاط مسلم يدعى عبد الرشيد، وأثارته تلك الهجمات الخبيثة على النبي ﷺ،

فقتل (سوامي شري داناد) أحد زعماء حركة شدّهي. قبض على القاتل وحوكم وأُعدم.. فتوجّه ألوف من مسلمي مدينة دلهي إلى سجن المدينة، وتسلّموا الجثة، ودفنوها باحتفال يليق بالشهداء. أثار هذا التعظيم غضب الهندوس، على أنّه تكريم للقاتل، واتهموا الإسلام بأنّه دين العنف واستخدام القوّة، وأنّه يعتمد على الجهاد الدموي بدلًا من العقل والفضيلة. فقام شاب صحفي ناشئ يدعى أبو الأعلى المودودي، وتصدّى للردّ على هذه الاتهامات، في سلسلة من المقالات، نشرتها مجلة (الجمعية) الناطقة بلسان جمعية علماء الهند. ثمّ نُشرت تلك المقالات في كتاب تحت اسم (الجهاد في الإسلام).

في الجزء الأوّل من هذا الكتاب، دلّل المودودي بالحجة المقنعة، على أنّ حروب نبي الإسلام ﷺ كانت دفاعية، حيث أنّه حارب لإرساء حرية الضمير، ولصدّ كلّ المحاولات الرامية إلى كبت الجهود السلمية للدعوة إلى الإسلام. وبعد أن نجح المودودي في إقناع القارئ بأنّ الإسلام قد أرسى فعلًا قواعد حرية الفكر.. وإذا بمولانا يُلقي غلالة من الشكّ على أدلّته، عندما ألحق بها هذا القول:

"إن حصر حرية الضمير في مسائل الإيمان والتدين وحدهما.. لا يعني أبدًا إباحة حرية الإثم للناس. فالإسلام لا يجيز استعمال القوة للدخول فيه، ولكن استخدام القوة مندوب، بل هو واجب في الواقع.. لمنع الناس من ارتكاب الخطأ. ولا يمكن أن يُسمح للبلاد والثقافات غير الإسلامية بممارسة أفعال غير أخلاقية. وينبغي حينئذٍ التمييز بين القوة المستخدمة

لحفظ تلك البلاد من الخطيئة، وبين تلك القوة التي تستعمل لإكراه الناس على الإسلام."

بذلك استحدث مولانا طريقة لتفسير القرآن وأحاديث الرسول ﷺ تنطوي على ضرر بالغ ليثبت بها نظريته هذه.

ويذهب المودودي أبعد قليلًا في مناقشة استعمال القوة ويفسر المراد من الآية التاسعة من سورة التوبة، ونقتبس من النص قوله:

"وعبارة ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ تُبين الغرض من الحرب.. ألا وهو منع الرذيلة. ولو كانت العبارة: حتى يقبلوا الإسلام مثلًا، لقيل عندئذ أن الإسلام يستعمل القوة لنشر عقيدته. ولكن عبارة ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ واضحة، وبقبول دفع الجزية يتوقف القتال. وبعدها فإن حياة غير المسلمين وأموالهم حرام.. أَسْلموا أولم يُسْلِموا."

بدأ مولانا كتابه ليدلل على أن الإسلام يمنح حرية الضمير كاملة، وأن حروب النبي ﷺ كانت ضد مناهضيه الذين يعملون على قمع الحرية الدينية.

كتب مولانا المودودي كتابه ليرد على مزاعم غير المسلمين القائلة بأن الإسلام يقوم على مبدأين أساسيين: الأول، إكراه الناس على فعل الخير، والثاني، منعهم من الانغماس في الرذيلة. ولما كان إجبار الناس على فعل الخير يناقض حرية الفكر.. فالإسلام يحجم عنه.

ولعل مولانا مُصاب بالنسيان أحيانًا.. لأنه استشهد من القرآن بالآيات التي تفرض وقف الحرب بعد أن يقبل غير المسلمين دفع الجزية، فكيف

تقوم حرب هدفها الأساسي منع الرذيلة.. ثم يتحقق النصر فيها إذا قبل الخصم دفع الجزية.. دون التعهد بالقضاء على الرذيلة؟! هل مولانا يحتال لجمع الضرائب والمكوس.. فإذا ما قبل القوم دفع الجزية سرعان ما ينسى الإسلام مبدأه الثاني؟!

ومع ذلك فإن الجزء الأخير من منطق المودودي يهدم الغاية التي من أجلها ألّف كتابه هدمًا تامًّا، حيث يقول:

"وعندما فشلت كلّ وسائل الإقناع.. استلّ النبي ﷺ سيفه.. ذلك السيف الذي أماط الشرّ والأذى، وأزال النجس والدرن من النفوس. بل وفعل السيف ما هو أكثر من ذلك، لقد أبرأ العُمي، فصاروا قادرين على رؤية نور الحق، وشفاهم من كبرهم.. ذلك الكبر الذي منع الناس من تقبل الحق. فانحنت الرقاب الغليظة، والرؤوس المتغطرسة في اتضاع وانصياع."

هذا الجانب من منطق مولانا أحبط بشارته بأنّ الإسلام يوطّد دعائم حرية الضمير، كما أنّه منطق يتنافر مع روح الإسلام. ولما كان الغلط يسوق إلى الغلط. فقد وصل مولانا أخيرًا.. وبعد ١٣٧ صفحة من الخلط والمغالطات.. إلى هذه النتيجة:

"... فإنّه من الخطأ أيضًا.. القول بأنّ السيف لم يكن له دور في هذا التحوّل إلى الإسلام."

عجبًا! ابتدأ مولانا كتابه معلنًا عزمه على بيان أنّ حروب النبيّ ﷺ كانت حروبًا دفاعية.. ومضى يجاهد في إثبات حرية الضمير.. وإذا به يصل إلى النهاية ويده في يد أعداء الإسلام! وبفعلته هذه يفتح الباب

لهجمات المستشرقين، لأنّ مولانا تمتّع باحترام أقليّة صغيرة.. ولكنّها كانت عالية الصوت شديد الجلبة، من ذوي الثقافة الغربية.. وهذا يساعد المستشرقين في احتجاجهم ضدّ الجهاد الإسلاميّ، ويعتمدون في ذلك على سيف مولانا المسلول ليؤدي دوره في الدعوة إلى الإسلام!

بعد أقلّ من عامين من هجرة النبي ﷺ.. واجه حضرته وصحابته ألْفًا من أهل مكة.. جاءوا إلى المدينة، وقد عقدوا العزم على محو الإسلام ونبيّه وأتباعه من الوجود. كان ذلك في صباح يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان، للسنة الثانية من الهجرة.. عندما هبط المكيّون عند منحدر (العقنقل) على بعد ٢٠ ميلًا من المدينة.. يمتطون ٧٠٠ من الإبل، ١٠٠ من الخيل. وكان على النبي ﷺ ومعه ٣١٣ رجلًا.. فيهم فارسان لا غير.. أن يتصدّى لهم دفاعًا عن المدينة. أمّا عن العتاد الحربي فقد كان من القلة بحيث لم يجد النبي ﷺ سوى عصًى خشبية سلّح بها (عكاشة) بدلًا من سيفه الذي كُسر أثناء القتال. كان موقف المسلمين يبدو مقنطًا حتّى أنّ النبي ﷺ استصرخ ربّه وصاح: "اللهمّ إنْ تَهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض."

وعلى حدّ قول "مونتجمري وات" (Montgomory Watt) : "لعلّ أبا جهلٍ منّى نفسه يومئذٍ بالخلاص من محمّد نهائيًا." (م. واط، محمّد في المدينة، كراتشي، أكسفورد بريس، ١٩٨١، ص ٥١).

ويتفق معه "ويل دورانت" (Will Durant) فيقول:

"يومئذٍ لو لقي محمّد الهزيمة.. لانتهى أمره هناك بالمرة." (قصة الحضارة، ج٤، ص ١٦٨).

ولم يتحقق ما أمله أبوجهل، ونجح المسلمون في الدفاع عن أنفسهم، بل وألحقوا هزيمة ساحقة بقوات المكيين.. الذين كانوا يفوقونهم عددًا وعدّة.

حفظ التاريخ الإسلامي أسماء هؤلاء الصحابة واحدًا واحدًا.. أولئك الذين اشتركوا في موقعة بدر دفاعًا عن الإسلام. وإنّ الإنسان ليتعجّب.. ما دور السيف في إسلام هؤلاء النيّف وثلاثمائة مسلم؟ كان من بينهم أبوبكر وعمر وعثمان وعلي.. الذين تولّوا الخلافة بعد النبي ﷺ.. فهل كان السيف هو الذي أزال الدنس من قلوبهم؟! واستشهد في ذلك اليوم عوف بن الحارث، وعمر بن سليمة، ومعوَّذ وغيرهم.. لا يُعرف على وجه التحديد كيف دخلوا الإسلام.. فهل بوسع أحدٍ القول بأنّ حدّ السيف هو الذي طهّر نفوسهم؟!

والصحابة العظام الذين خاضوا الحروب فيما بعد ببسالة فائقة دفاعًا عن الإسلام، منهم سعد بن أبي وقّاص، وأبوعبيدة عامر بن الجراح، وخالد بن الوليد.. لم يدخلوا الإسلام كرهًا. مئات من المهاجرين وآلاف من الأنصار اعتنقوا الإسلام.. وقدّموا الملاذ والحماية للنبي المضطهد.. وما ارتفع سيف في وجوههم ليدخلهم للإسلام. لقد كان هؤلاء الذين تحوّلوا من الوثنية إلى الإسلام.. ثمارًا رائعة لدوحة الإسلام، ومفخرة للإنسانية، وعلامات وضّاءة على طريق الحق المحض.. فما أقبحها إهانة تصدر ممن يزعم بأنّ السيف طهّر تلك القلوب! وما أشنعها من إيماءة قوله: (من الخطأ أيضًا القول بأنّ السيف لم يكن له دور في إسلامهم)!

ماذا كان هؤلاء الناس قبل مجيء الإسلام؟

قبل ظهور سيدنا محمّد ﷺ كانت جزيرة العرب، كما ذكر "ويل دورانت" مجرد وحدة إقليمية فحَسب. ويقول: "أطلق اليونان اسم "ساركينو" (Sarakenol)، على سكّان الجزيرة العربية (من كلمة شرقيين)، وكانوا من قبل يسمونهم "سكينايت" (Scenite)، أي عرب الخيام..

عاشوا فوق أرض قاحلة، يصعب الانتقال فيها. وكان هذا يعني أن تكتفي كلّ قبيلة بنفسها. استأنس العرب الجمل خلال الألف الثاني قبل الميلاد المسيحي.. وهو حيوان يناسب الصحراء تمامًا.. فمنه لبن يحفظ حياتهم، وفي بوله علاج لهم، ومن لحمه غذاء رخص، ومن جلده ووبره خيامهم وملابسهم، حتى بعره اتخذوه وقودًا. والجمل صبور على العطش خمس وعشرين يومًا في الشتاء وخمسة أيام في الصيف. وتجولت جماعات صغيرة من البدو خلف إبلهم طلبًا للمرعى لأنّها كانت أهمّ أسباب حياتهم."

وقد أجمل "ألوي سبرنجر" (Aloy Springer)، تاريخ العرب قبل الإسلام في قوله: "إنّهم كانوا عالة على الجمال."

لم يشعر العربي بواجب الولاء لأي أحد بعد قبيلته.. وكانت شدة الولاء تتناسب مع رابطة الدم.. تزداد بقربها وتقلّ ببعدها. استغنى البدوي عن الضمير في سبيل قبيلته بمثل ما استغنى عنه أهل الحضر في سبيل الوطن والعقيدة والعرف.. أعني أنّه يكذب ويسرق ويقتل ويموت. ولم يرتبط العربي بأي قانون مكتوب، ولم تكن لهم حكومة تفرض القانون.

كان العرب يحزنون ويتوارون خجلًا لمولد البنات، وأدوهنّ فور ولادتهن أحيانًا. وإذا قُدّر لهنّ الحياة.. فقد تحظى الجميلة منهنّ بحبيب أو زوج

يذهب إلى أقصى العالم للدفاع عنها، ولكنّها مع ذلك تبقى كبعض المتاع.. يملكها الأب أو الزوج، ويرثها الابن فيما يرث مع كلّ متعلقاتها. كُنّ إماء، وندر أن كانت إحداهن صديقة لأبيها أو زوجها أو ابنها.

قليلًا ما فكّر العربي في مسألة الحياة بعد الموت. وكان يقدم لآلهته الأضاحي البشرية، ويعبد أحجارًا مقدسة. وكانت مكة مركز عبادة الأصنام قبل الإسلام، حيث أحاطت بالكعبة أصنام عديدة ترمز للآلهة.. وكان (هُبل) صنم مكة المصنوع من العقيق الأحمر أعظمها شأنًا. أمّا الحجاز فكان لهم ثلاثة آلهة: اللات ومناة والعزّى.. وكانت لها مكانة عالية بوصفها الربّ.

كان في استطاعة البدوي ذي البنية السليمة أن يعيش على تمرات وقليل من لبن الناقة. ويصنع من نخيل البلح خمرًا.. تحلق به إلى آفاق من الشعر تفيض بالخيال والعاطفة. وترددت حياة البدوي بين الحب والحرب.. وما أسرع اندفاعه للانتقام إذا أهين أو أُضير في نفسه أو قبيلته.

كان قانون العين بالعين، والسن بالسن، سائدًا، ويصيب العار مَن يفشل من الانتقام مِمَّن آذاه. كان يقضي شطرًا كبيرًا من حياته في طلب الثأر لقبيلته. عُرف تاريخ العرب قبل الإسلام باسم (أيّام العرب)، والمقصود منها تلك المعارك التي دارت بين القبائل.. وأرَّخوا بأيام معينة منها، مثل: يوم بُعاث وأيام الفجار. كانت الحرب تنشب عادة بسبب نزاع على نعمٍ أو مرعى أو عين ماء. ومن أشْهر تلك الأيام، تلك التي كانت بين بني بكر وأخوانهم بني تغلب بسبب ناقة لامرأة عجوز تسمى (البسوس). حدث أن أصاب الناقة تغلبي فجرحها، واستغاثت المرأة.. فنشبت حرب امتدت إلى

أربعين عامًا.. ولم تتوقف إلا بعد أن أصابهم الإعياء جميعًا واستُنفذت قوى القبيلتين. وبعدها قامت حرب مشهورة أخرى، بسبب سباق جري بين فرسين، داحس والغبراء، يملكها شيخان.. تشاجرا، فقامت الحرب بين القبيلتين لعشرات من السنين.

هكذا كانت الحياة الاجتماعية التي ظهر فيها محمّد ﷺ، وهؤلاء هم القوم الذي آتاهم الله تعالى الفرصة ليدخلوا في دين نبي ينزل به الاضطهاد. هؤلاء الناس المعروفون بالعنف والولع بالحرب، والفزع إلى القتال لأتفه الأسباب.. القول بإحناء رؤوسهم وإكراههم بالقوة.. قول يناقض التاريخ، فضلًا عن أنّه يحط من إيمان الروّاد الأوائل.. الذين باعوا أرواحهم دفاعًا عن الإسلام يوم بدر.

أُسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة، وأسد بن زرارة، وعبد الله بن رواحة، وسعد بن عُبادة، والمنذر بن عمير، والبراء بن معرور، وعبادة بن الصامت، ورافع بن مالك، وكثير غيرهم من الأنصار.. ساروا على أقدامهم من المدينة إلى مكة ليدخلوا في الإسلام على يد نبي الإسلام.. والله، إنّ مجرّد التلميح بأنّ للسيف دورًا في إسلامهم لهو إنكارٌ متبجح لحقائق التاريخ!

وإذا كان في تاريخ المسيحية من حوّل السيف إلى محراث للأرض (أشعياء ٢ : ٤)، فإنّ مولانا المودودي يريد بتفسيره لتاريخ الإسلام.. أن يُدخل في عقولنا.. أنّ السيف المحمّدي هو الذي حرث أرض الأرواح لتبذر فيها بذور الدين! فهل سيف محمّد ﷺ أم آيات من القرآن الكريم هي التي بدّلت عمر بن الخطاب من عدو لدود إلى خادم مخلص للإسلام؟

في الأيام الأولى لاضطهاد قريش للنبي ﷺ.. كان عمر شابًا جموحًا في السادسة والعشرين من عمره. أراد أن يريح قريشًا من سبب فرقتهم، فقرر قتل النبي ﷺ. وخرج متوشحًا سيفه.. يريد النبي ﷺ، قابله نعيم بن عبد الله فأحس الشر في قصده، فقال له أفلا ترجع إلى أهل بيتك.. فقد أسلمت أختك فاطمة وزوجها سعد بن زيد، وتابعا محمّد فعليك بهما. ودون أن ينبس ببنت شفة.. أسرع عمر إلى بيت أخته وزوجها، وكان عندهما خباب بن الأرت يقرأ عليهما من صحيفة فيها الآيات الأولى من سورة (طه). فلما سمعوا حس عمر أسرع خباب ليختبئ في ركن من البيت، وأخفت فاطمة الصحيفة في طيات ثيابها. ولكن عمر كان قد سمع صوت التلاوة، ودخل على خَتَنه وبطش به. فقامت أخته لتكفّه عن زوجها، فضربها فشجّها. ولما رأى عمر الدم ندم على ما صنع، فارعوى وهدأت ثائرته، وطلب أن يرى ما كانوا يقرؤون. فلمّا قرأ الصحيفة صاح: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه. وانصرف من فوره إلى دار الأرقم حيث كان النبي ﷺ مع نفر من أصحابه.. وقال: يا رسول الله، جئتك لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله. فكبّر الرسول ﷺ تكبيرة عرف بها أهل البيت أنّ عمر قد أسلم.

لماذا يُصرّ مولانا المودودي على صبغ الإسلام بصبغة العنف؟ لماذا هذا التناقض في نظرية الجهاد؟ هلمّ لننظر إلى خلفية مولانا، والظروف التي كتب فيها كتابه (الجهاد في الإسلام)، فلعلّ ذلك يساعدنا في الوصول إلى جواب على هذا التساؤل.

قضى السيد أبو الأعلى المودودي طفولته وشبابه المبكر في (حيدر آباد)، حيث لم يزل النظام يحكم بطريقة (المغول) العظام، وحيث يتغنّى كبير وزرائه الهندي بمدح النبي ﷺ عند نواصي الطرق. كانت (حيدر آباد) آخر معقل للتراث المغولي، الذي غلب عليه الطابع الإسلامي.. في مجتمع غالب سكانه من الهندوس(٨٠ بالمائة) وأقلية من المسلمين (١٠ بالمائة). ولم يكن بيد الحاكم قوة حقيقية فعالة.. ومع ذلك كان يستعيد مظاهر المجد الغابر للحكم المغولي. لم يكن عالـمًا حقيقيًّا.. فالبلاط الملكي.. الأبهة، الحُجّاب، الحرس، الملابس المذهبة، العمامة التقليدية، المجوهرات، الأبواق.. كلها مظاهر تجدد ذكرى بلاط دلهي قبل أن ينهبها (نادر شاه) عام ١٧٣٩م. كان هناك بعض الموظفين من العرب يحملون خناجرهم المذهبة وبنادقهم الأثرية، بينما لرجال الجيش معدّاتهم الحربية الحديثة. كان هناك الراجات والمهاراجات.. يحكم بعضهم على مناطق أوسع مِمّا تحتله حكومة الهند البريطانية. كانوا يمثلون مواقع شرفية في حكومة (النظام)، ويملأون جانبًا من الصورة التي تفوق الواقع، بما فيها من سماحة المسلمين وولاء الهندوس.

ومن المعروف أنّ تراث (حيدر آباد) يرجع إلى أصل هندي، ولكنّه ذو مظهر إسلامي على نطاق واسع. كان الهيكل الاجتماعي لا يزال إقطاعيًّا.. ليس بالمفهوم البدائي، ولكنّه مُطعّم بالكثير من السلوك المهذب، والتسامح، والاحترام المتبادل.. بشكل يملأ المجلدات كي نرويه لأجيالنا القادمة.. لو كانوا يسمعون!

في حيدر آباد هذه.. تكونت شخصية المودودي الشاب. كان في بدء حياته الصحفية حساسًا سريع التأثر. عمل في هيئة تحرير جريدة (المدينة) بمدينة (بيجنور)، ثمّ محررًا في جريدة (تاج) بمدينة (جبل بور)، ثمّ تولى تحرير جريدة (الجمعية) في مدينة دلهي عام ١٩٢٥. وكانت حركة (شُدهي) لتطهير المسلمين في أوج نشاطها كما ذكرنا آنفًا. وفي هذا الوقت بدأ المحرر الشاب يكتب مقالاته. ومن الواضح أنّه كتبها تحت ضغط أعماله اليومية، وأتمّها في ستة أشهر. ابتدأ المودودي كتابة سلسلة مقالاته بروح المؤمن بالقومية أكثر منه بدافع الحماس الديني. ولكن بعد أن زاد اطلاعه على المراجع الدينية بالقدر الذي تسمح به القراءة خلال ستة أشهر.. وبدون دراسة دينية متعمقة.. تحول إلى منادٍ بالإحياء الديني.

ابتدأ تصنيف كتابه من منطلق قومي هندي، وبهذه الصفة أراد أن يثبت للهندوس و(للمهاتما غاندي) على وجه الخصوص، أنّ الإسلام لم يكن دين عنف. وفي خطبة بالمسجد الجامع بمدينة (دلهي) عبّر الزعيم الإسلامي الهندي الكبير، مولانا محمد علي جوهر، عن أمله أن يكتب أحد المسلمين كتابًا يبين فيه براءة الإسلام من العنف. وكان المودودي يومئذ بين الحاضرين، فأخذ على عاتقه أن يقوم بهذه المهمة. ولذلك فإنّ الأقساط الأولى من مقالاته لفتت نظر الهندوس إلى أنّ الإسلام ليس دين سيف. ولكنّ مؤلفنا وُلد ونشأ في مملكة مسلمة، وكان الهندوس فيها أكثرية تحت حاكم مسلم.. وهو مشبّع بقوة السلطة السياسية، وقد وضع كتابين عن تاريخ حيدر آباد.. ولذلك سرعان ما ناقض حججه التي ساقها بنفسه

لتفنيد الجهاد بالسيف، وبلهجة المسلم الحيدر آبادي قال جازمًا: "من الخطأ القول بأنّ السيف لم يكن له دور في هذا التحول إلى الإسلام."

لم يكن هذا الصحفي الشاب مؤرخًا ولا عالمًا دينيًا، ولم يكن ليفهم أنّ المسلمين ظلّوا حكامًا في حيدر آباد لستة قرون ومع ذلك بقيت الأغلبية العظمى من السكان هندوس.. ولم تساعد هذه السلطة السياسية التي في يد الحكام المسلمين على إدخال الغالبية الهندوسية إلى الإسلام قط. كان مؤلف (الجهاد في الإسلام) عندئذ لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره.. وبقي مولانا سطحي الفكر حتى بعد أن وصل إلى الرابعة والستين. قال البروفيسور فضل الرحمان: "مع أنّ المودودي لم يكن عالمًا.. إلّا أنّه علّم نفسه بنفسه. وكان ذا ذكاء ملموس ومعرفة كافية.. لكنّه لم يكن بأي حال عالمًا دقيقًا متفحصًا أو عميق التفكير. ولكنّه بلا شك كان كالعاصفة في ذلك الجو الإسلامي الخانق الذي خلقته المدارس التقليدية.. وكذلك لا يُبدي المودودي في أي مكان تلك الرؤية الدقيقة لدور الإسلام في العالم. ولأنّه صحفي أكثر منه عالم حقيقي فقد كان يكتب بسرعة كبيرة.. حتى يروي ظمأ قرائه من الشبان المتعطشين.. ومن ثم كانت كتاباته سطحية. ولم يصل أحد من تلاميذ المودودي أبدًا إلى مستوى ذي شأن في دراسة الإسلام. ونتيجة لذلك أخذ المخلصون من تلاميذه أقواله على أنّها الكلمة الفصل في أمور الإسلام.. مهما كثر أو اشتدّ فيها تناقضه مع نفسه من وقت لآخر.. وفي مسائل جوهرية كالسياسة الاقتصادية والنظرية السياسية." (فضل الرحمن، الإسلام والتحديث، مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٨٢، ص ١١٦).

ويتفق معه في نفس الرأي المفتي كفاية الله الدهلوي حيث قال:

"أعرف مولانا أبا الأعلى المودودي.. إنّه لم يتعلم أو يتتلمذ على عالم معروف. إنّ كتاباته تحظى بكثير من القراء، ولكنّ فهمه للدين ضعيف." (مكتوب الهداية، كتبخانة عزيزية، ص٢١).

ولقد تنبّأ مولانا حسين أحمد المدني بخطورته فقال:

"منشوراته وكتبه مكسوة بعباءة دينية، ولكنّها تتضمّن آراء معارضة للدين وخارجة عليه. والقرّاء العاديون لا يستطيعون الرؤية من خلال هذه العباءة.. ولذلك يجدون الإسلام الذي جاء به النبي ﷺ منفّرًا.. الإسلام الذي اتّبعته الأمّة المحمّدية خلال الألف وثلاثمائة وخمسين سنة الماضية." (مولانا محمّد أختر، المودودي في نظر أكابر علماء الأمّة، المرجع السابق ص٩).

وفي أحد رسائله كتب مولانا قاري محمّد طيب:

"بعد أن اطلعت على كتابات المودودي توصلت إلى أنّه لم يكتسب قواعد البحث في فلسفة الشريعة الإسلامية والتصوف. ليس بإمكانه أن يكتب فيها بخبرة علمية." (المرجع السابق ص ١٩)

وكتب مولانا أحمد علي اللاهوري في هذا المعنى يقول:

"يودّ مولانا المودودي أن يقدم للمسلمين إسلامًا جديدًا. ولن يقبل المسلمون بإسلامه الجديد هذا.. إلا إذا انهدم تمامًا إسلامهم القديم الذي اتّبعوه لمدة ١٣٥٠ عامًا. وإلا إذا ثبت أنّ ذلك الإسلام لم يعد موضوعيًّا أو علميًّا." (المرجع السابق، ص ٤٨)

فمولانا المودودي كما رأينا لم يكن مؤرخًا أو عالمًا دينيًّا، بل هو صحفي أساسًا.. يمتلك صفتين أساسيتين للصحفي هما: التمكن من اللغة الأوردية، والقدرة على الإنتاج الغزير في وقت قصير. كانت مجلة (الجمعية) تصدر كلّ أسبوعين في ذلك الوقت، وكان عليه أن يكتب عمودًا في جريدة (الجهاد) كل يومين أو ثلاثة.. هذا بالإضافة إلى تحرير جريدتين. ولما كان محرومًا من خبرة البحث العلمي، وليس عنده الوقت الكافي لاكتسابها فقد أخطأ في تقديره إذ اعتبر موقعة حُنين (٦٣٠/١/٣٠ ميلادية) والتي وقعت بعد فتح مكّة (٦٣٠/١/١١م) أنّها نقطة التحول في التاريخ الإسلامي.. عندما وجد أنّ أعداء الإسلام مُنوا بالهزيمة الحاسمة يوم حنين.. استنتج مولانا أنّ هذا النصر وما ترتب عليه من قوة سياسية للمسلمين وراء دخول جزيرة العرب بأجمعها في الإسلام.

ولم يكن المودودي وحده في استخلاص هذه النتيجة، وأنّما شاركه المستشرقون المغرضون في رأيه.. لأنّهم عموا وتعاموا عمّا للإسلام من قوى روحية وأخلاقية، وعجزوا عن فهم المعجزات العظمى لنبينا الكريم ﷺ.. ولذلك ينسبون انتشار الإسلام دائمًا إلى عنصر القوة الجبرية.

قسّم المستشرقون زمن البعثة المحمّدية إلى عهدين، أولهما: العهد المكي حيث كان الاضطهاد، وثانيهما: العهد المدني بعد الهجرة حيث كان الغزو. وتقبّل الصحفي الشاب.. أبوالأعلى المودودي.. ذو المعرفة السطحية بالتاريخ الإسلامي.. هذا التبسيط الظاهري للأمور، والذي هو في الحقيقة تقسيم متعمّد لحياة النبي ﷺ.. وضع بمكر ودهاء شديدين.

لقد فُرضت المصادمات المسلحة والعمليات الحربية والتهديد بالحرب على الرسول ﷺ بصفة مستمرة. وتضافرت جهود مشركي مكة مع يهود المدينة، وبتشجيع من المنافقين، للتآمر على الإسلام منذ هجرة النبي ﷺ إلى المدينة. وأثاروا الكراهية ضدّ المسلمين، وحرّضوا العرب الوثنيين ضدّ النبيّ ﷺ بحماس شديد. واضطر المسلمون إلى اتّخاذ تدابير دفاعية، وكان ذلك على حساب المهمّة الأساسية للنبي ﷺ. أرادوا تعكير صفو السلام عامدين حتى يحولوا دون انتشار الدين الجديد.

الفصل الرابع

أنبياء وفرسان: دراسة مقارنة

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾

(سورة الغاشية: ٢٢،٢٣)

"إنّها (أي الجماعة الإسلامية) ليست تنظيمًا للتبشير، أو جماعة من الوعاظ.. وإنّما هي منظمة من فرسان الله.."

(أبو الأعلى المودودي، حقيقة الجهاد، لاهور، شركة تاج، ١٩٦٤، ص٥٨)

تفحّصنا في الفصل السابق.. الصورة التي رسمها المستشرقون في القرن التاسع عشر لنبي الإسلام ﷺ. فألفيناها صورة لرجل مقاتل، متعصب، اندفع على صهوة جواده من الجزيرة العربية، شاهرًا سيفه في يده، وممسكًا بالقرآن في يده الأخرى.. مخيِّرًا ضحاياه بين أمرين. ولكنّ المستشرقين المعاصرين خففوا من قبح هذه الصورة التي روّج لها "إدوارد جيبون" (Edward

Gibbon) (سقوط الإمبراطورية البريطانية، ج٥، لندن ١٩٠٩، ص٣٣٢) حتّى إنّ العالم اليهودي المشهور "برنارد لويس" (Bernard Lewis)، بدعابته الإنجليزية المأثورة عنه، اعترف قائلًا: "هذه الصورة مزوّرة بل ومستحيلة، إلا إذا كان بوسعنا أن نتخيّل سباقًا بين حملة السيوف.. كلّهم من العسر. والعرف عند المسلمين أن يستعملوا اليد اليسرى في الأعمال القذرة وما من مسلم يحترم نفسه يرفع المصحف بيده اليسرى!" (ب. لويس، اليهود في الإسلام، ط. جامعة برنستن، برلين، ١٩٨٣، ص٣).

ولكن هناك مسلمًا، يحترم نفسه، هو مولانا المودودي، ومع ذلك يقبض على سيفه بيده اليمنى، بغض النظر عن مجافاة ذلك لتعاليم القرآن المجيد وسنة النبي الكريم ﷺ! يدّعي مولانا أنّه مريد وفيّ للنبي ﷺ، وهذا ما يجعلنا نتوقع منه أن يتحدّث بإعجاب عن سيده، ولا يرى فيه إلا الحُسن، ولا تشاهد عينه فيه إلا كلّ جميل. ولكن عجبًا، أنّى له أن يرى في سيده من النقائص.. ما يرفضه حتى خصوم الإسلام المعاصرين؟ هناك ثلاث إجابات على هذا السؤال:

(١) إمّا أنّ ادّعاء مولانا بكونه مريدًا وفيًّا للنبي ﷺ ادّعاء باطل. وعلى ضوء ما كتبه مولانا في (الجهاد في الإسلام) وأعماله الأخرى.. فليس ببعيد أن يعتقد القارئ بأنّ الكاتب لا علاقة له من قريب أو من بعيد، بتعاليم النبيّ الكريم ﷺ، وأنّ دعوى ولائه ووفائه كاذبة. وهذه تهمة خطيرة. ولمّا كنتُ من جماعة تتهم زورًا بأنّها لا تجلّ النبي ﷺ نعوذ بالله من ذلك).. فأنا آخر من يتهم مولانا المودودي في ولائه لسيدنا وإمامنا محمّد ﷺ.

(٢) أو أنّ إدراك مولانا بالقيم قد اضطرب.. حتى تعذر عليه التمييز بين الخير والشر، كالمصاب بعمى الألوان لا يستطيع التمييز بين الأخضر والأحمر..

(٣) أو أنّ مولانا مصاب بهاجس، وتستحوذ عليه رغبة ملحّة في السلطة والقوة السياسية. وقد عرّفوا الهاجس بأنّه فكرة دائمة متواترة، غالبًا ما تتلوّن بمسحة انفعالية قوية.. تدفع المرء إلى النزوع نحو سلوك معين بصفة متكررة. وهي حالة ذهنية مرضية. (جيمس دريفر، قاموس السيكولوجي، ١٩٦٤، ص ١٩١).

وعند "بيير جانيت" (Pierre Janet): "يكون المصاب بهاجسٍ موسوسًا، متيقظ الضمير، يعاني من الإحساس بالتفاهة." (راجع ودورث وِشهان، مدرسة علم النفس المعاصر، نيويورك، رونالد بريس، ١٩٦٤، ص٢٥٣).

ولخّص "إلتون مايو" (Elton Mayo) نتائج جانيت وتشخيصاته للمصابين بالهاجس في قوله:

"إنّهم متخصصون في بذل الجهد الشاق للتفكر في أمور واضحة. يدققون تدقيقًا مبالغًا فيه في الأمور التافهة بدلًا من الأمور الهامة التي يحسّون بأنّهم غير أهلٍ لها." (إ. مايو، ملاحظات على سيكولوجيا ب. جانيت، المرجع السابق).

وكما رأينا من قبل، فإنّ ذكريات مولانا في سنّ الطفولة، وتجربته في سنّ المراهقة.. شكّلت له دافعًا واحدًا يتحكم في سلوكه: السلطة السياسية.

يقول "كيرت لِيوِن" (Kurt Lewin): إذا أُريد فهم سلوك الفرد، فلا بدّ من الرجوع إلى بيئته عبر فترة زمنية طويلة، وأيضًا إلى لحظته الحالية، أي أنّ مجال اهتمام لِيوِن هو فترة الحياة التي تشمل الفرد وبيئته النفسية.

وفصّل "ودزورث وشيهان" (Woodworth & Sheehan) نظرية لِيوِن فقالا:

"البيئة السيكولوجية (أو السلوكية) هي بالطبع المحيط كما يَعِيه ويفهمه المرء، ولكنّها فوق ذلك.. المحيط كما ينتمي إلى حاجات الفرد الحالية ومتطلباته الظاهرية. فبعض الأهداف التي وعاها لم تعد ذات أهمية له في الوقت الحالي، لذلك تبقى في خلفية محيطه السيكولوجي. وهناك أهداف أخرى ذات جذب موجب أو سالب: موجب إذا كانت تبشر بالوفاء بحاجاته الحالية، وسالب إذا هددته بضرر ما. فالأهداف ذات الجذب الموجب تجتذبه، أمّا سلبية الجذب فتنفّره." (ودزورث وِشيهان، المرجع السابق، ص٢٤١)

"وعلم النفس (السيكولوجي) ليس من العلوم الكاملة.. بل لا يزال يتطوّر، ولكن (هاجس) مولانا المودودي يبدو متفقًا تمامًا مع النظرية السيكولوجية التي بحثناها آنفًا.. ولا يعني ذلك أنّنا قد لا نجد تفسيرًا آخر لسلوكه إلّا مشكلة الهاجس. وأيًّا ما كان التفسير، فإنّ الهاجس ولا شكّ، هو الذي يُغشي رؤيا مولانا.

إنّه يتعثر، ويزل أحيانًا في مزالق عبرها من قبله أعداء الله. وهذا الهاجس هو ما جعله يؤيّد عقوبة القتل لمن يبدّل دينه، تلك العقوبة التي كانت دائمًا وأبدًا.. مطلوبة لمعاقبة الأنبياء وأتباعهم لأنّهم بدّلوا دينهم التقليدي.

إنّه نفس الهاجس الذي يدفعه إلى وضع السيف في يدّ النبيّ ﷺ، فيوقف نفسه بذلك في صفّ أعداء الإسلام، الذين ما برحوا يرسمون لحضرته ﷺ صورة ملطخة بالدماء. ولـمّا كان الإقناع والإكراه على طرفي نقيض.. تخيّر مولانا السيف أداة للإصلاح، واستبعد الإقناع منهجًا للدعوة، ذلك لأنّ الإقناع مهمة شاقة.. وجد أو حسّ في نفسه أنّه غير قادر عليها. إنّها تتطلب تضحية ومعاناة طويلة في مواجهة المعرضين.. كما تبيّن ذلك سيرة النبي ﷺ في مكة. نبذها مولانا لأنّها هدف سلبي الجذب. وبدا له أنّ القهر عن طريق السلطة السياسية يتفق مع حاجاته الحاضرة. ومن ثمّ اختاره، ونسبه إلى سيرة النبي ﷺ.. بمنطق صعب المنال.

وعندما أقول أنّ مولانا تحت تأثير هاجس، لا أقصد بذلك عدم احترامه. كلا، هذا.. مع أنّه لما وضع سيفًا في يد سيدي ومولاي محمّد ﷺ قد أظهر عدم الاحترام للنبي ﷺ.. ولكلّ ما يمثله من قِيَم.

عندما ألقيت نظرة على كتاب "إسرائيل شِنكَر" (Israel Shenker) المسمّى (معطف متعدد الألوان)، وهو مجموعة من المقالات عن اليهودية.. يقول عنه "هيونسندن" (Nissenden Hugh): "لقد صوّر مستر شنكر هاجسه بطريقة تجعل تاريخ شعبه مُتَقَبّلا ومشرقًا في عين كلّ إنسان." (H. Nissenden Scripture & Survival, Newyork Times, Book Review, 12, 1985-3-17) تمنّيت لو أنّ مولانا قد انتفع بهاجسه هكذا، ولكنّه بدلًا من ذلك سوّغ الجبر وبرّره، ليس من الناحية الشرعية فحَسب.. وإنّما من ناحية كونه منهجًا أساسيًّا للإصلاح.. فيقول:

"وما كان ممكنًا أن يضحّوا (أي خصوم الإسلام) بمنفعتهم الذاتية بطريق الإقناع والتفكير، ولكن ما على المرء إلا أن يتملّك السلطة السياسية ثمّ يقهرهم ليتوقّفوا عن أذاهم!"

يبدو أنّ هذه الطريقة (الإصلاحية) أشدّ أثرًا وأيسر جهدًا من الإقناع.. الذي يتطلب الصبر والمثابرة في مواجهة السخرية والصدّ والزجر.. نعم، ما أسهل تحويل الناس قسرًا..اعتمادًا على القوة المادية. ليس ثمة وجه للمقارنة بين الطريقتين.. واحدة سهلة سريعة والأخرى مضنية بطيئة.. تحتاج إلى صبر أيوب عليه السلام! هذا قدر المصلحين جميعًا.. عليهم أن يحتملوا الرفض والاستهزاء. وهذا ما يقرره القرآن المجيد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ* وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ* وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ* وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ* وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ (سورة المطففين:٣٠-٣٤). تبيّن الآيات السابقة سبب رفض مولانا اتبّاع طريق المصلحين الذين أرسلهم الله تعالى.. فالناس ينظرون إليهم ساخرين، ويقولون: انظروا إلى من يريدون تغييرنا ولا سلاح معهم سوى الإقناع! إنّهم من الضعف بحيث لو شئنا لسحقناهم سحقًا.. ومع ذلك يزعمون أنّ بوسعهم التغلب علينا بالفكر والنصح. لذلك أبى مولانا النقاش السلمي وقال:

"من أراد اجتثاث الأذى والفوضى من هذا العالم، وابتغى إصلاح بني البشر.. فَلْيُدرك أنّ ذلك محال عن طريق الوعظ والإرشاد.. لا فائدة من ذلك. لا بدّ له من أن يثور على حكومة المبادئ الباطلة.. لا بدّ من أن

يحصل على السلطة.. ويزيح الآثمين من الحكومة، ويقيم حكومة تستند إلى مبادئ سليمة، وإدارة عادلة منصفة." (حقيقة الجهاد للمودودي).

ولكنّ الطريقة الإصلاحية المودودية هذه.. ماركسية المثال، وهي ليست الأسلوب الإلهي لإنقاذ البشر. في الخطة الإلهية يحظى الإقناع العقلي بأهميّة عظمى، حتّى أنّه في عصر الانحطاط الأخلاقي الشامل لن يفلح إلّا المؤمنون الصالحون.. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (سورة العصر:٤). وبنظرة خاطفة على التاريخ، ينكشف لنا أنّ الله تعالى يطالب عباده الذين يقومون بثورات روحية أخلاقية.. أن يكسبوا قلوب الناس بالحق وبالصبر. نعم، الصبر والدعاء مكمّلان للثورة الدينية.. وينبغي دوام الحض عليهما إلى أن يتحقق وعد الله. ولقد وعد الله ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة الأعراف:١٢٩).

لقد اتّبع رسل الله جميعًا هذه الطريقة للإصلاح الديني، وهي طريقة تتعارض تمامًا مع الماركسية التي تنتهج أسلوب القسر. وحفظ القرآن لنا سيرة كثير من الأنبياء والدعاة إلى الله. كان الإقناع بالحجة وسيلة نوح وإبراهيم -عليهما السلام- لتحقيق الانقلاب، وكذلك شعيب وصالح عليهما السلام، وأُرسل لوط عليه السلام ناصحًا، وكذلك موسى عليه السلام، وأحدث عيسى عليه السلام ثورة روحية بمواعظه، وفوق الكلّ خاتَم النبيين، وسيد المصلحين في كلّ الزمان، سيدنا محمّد المصطفى ﷺ، بُعِث لِيُحدث انقلابًا عالميًّا روحيًّا.. بالإقناع والفكر لا غير. ولكنّ مولانا يتجاهل سنة رسل الله جميعًا، بل وينقضها بعبارته: "من أراد اجتثاث الأذى والفوضى من هذا

العالم، وابتغى إصلاح بني البشر.. فَلْيُدرك أنّ ذلك محال عن طريق الوعظ والإرشاد.. فلا فائدة من ذلك.."

تعالوا نُقارن هذا القول الجازم من المودودي.. بسنة أنبياء الله التي لم تتخلف قط. عندما اتهمَ نوحًا عليه السلام قومُه بإشاعة (الضلال المبين) بينهم، أجابهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ* أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف:٦٢،٦٣).

هذا ما يقصّه الله تعالى عن رسالة نوح عليه السلام، ولكن بحسب القول المودودي الحاسم، كان ينبغي على نوح عليه السلام أن يقول لهم: أنا رسول الله، ولسوف أسلط عليكم، شئتم أم أبيتم، جماعة من الصالحين فينزعون السلطة من أيديكم!!

ولمّا قالت عادٌ لِهود عليه السلام أنّه قد ضلّ وأمعن في سفاهته وكذبه، لم يجبهم بقوله: لا تنخدعوا وتحسبوني سفيهًا لأنّ نصحي سلمي لا ضرر منه. أنتم لا تعرفونني على حقيقتي، لسوف أنتزع السلطة من أيدي الذين عصوا الله، وأضعها في يد رجالي الصالحين. نعم، لم يقل ذلك.. لأنّه نبيّ يتّبع سنّة الأنبياء جميعًا، قال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ* أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (سورة الأعراف:٦٨،٦٩)

وما فعلته عاد فعلته ثمود، إذ رفضوا نبيّهم صالحًا عليه السلام، واتّهموه بكلّ نقيصة. فسار على طريقة نوح وهود (عليهما السلام)، وقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ

﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (سورة الأعراف:٨٠). ثمّ بعث الله لوطًا ﷺ، ولم يحاول اتباعه الاستيلاء على السلطة من القوم المسرفين. ودأب على إقناعهم بالحجة والمنطق.. إلى أن نزل بهم عقاب الله. وخرج لوط مع من آمن به.. تاركين القرية بإذن من ربّهم، وجاء ذلك الصباح الذي طالما حُذّر الطغاة منه.. ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (سورة الصافات:١٧٨). وتستمر سورة الأعراف تحكي قصص الأقوام الضالين.. وكيف فعلوا مع أنبيائهم الذين جاءوا لإصلاحهم. فبعد لوط يخبرنا القرآن الكريم عن شعيب ﷺ، الذي مضى في محاولاته لإقناع قومه المتكبرين، ومناشدة معذّبيه القساة. فلمّا رفضوا كلّ نُصح، توجّه إليهم قائلًا: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (سورة الأعراف:٩٤).

القرآن كلمة الله عند مولانا المودودي وعند كلّ المسلمين.. يخبرنا بأنّ رسل الله تعالى جميعًا كانوا يعظون وينصحون لأقوامهم. فإذا لقوا منهم الإعراض ابتهلوا ودعوا ربّهم وتوسّلوا إليه تعالى. لقد كانوا يؤمنون برسالاتهم إيمانًا لا يتزعزع، وبدلًا من أن يفكرّوا أو يحاولوا انتزاع السلطة من خصومهم، دأبوا على عطاء الحب والعطف. كانوا يسعون إلى الإقناع بلطف الصديق، وينصحون في لين وتواضع ويتركون النتيجة لله تعالى، فهو وحده مالك المُلك، يُورث الأرض من يشاء من عباده. لقد أجمل موسى ﷺ خلاصة مراد الرسل في دعائه: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (سورة الأعراف:١٢٧). ونصح قومه قائلًا: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾، وأوضح لهم:

﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (سورة الأعراف:١٢٩). وما ينبغي للصالحين أن يتملّكوا السلطة ويثبوا عليها بالقوة، وكلّ ما نعرفه أنّ ﴿الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة الأعراف:١٢٩).

بعد موسى جاء عيسى (عليهما السلام)، وبدَوْره قضى حياته واعظًا ناصحًا، ولم يكن من أهل السلطة والسياسة. وأخيرًا بُعث إمام الأنبياء.. محمّد ﷺ.. واعظًا وناصحًا يدعو قومه إلى الفضائل.. ولم يكن شرطيًا أو مقاتلًا.. بل سمّاه الله تعالى (مُذَكِّرًا) حيث قال له: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ* لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ (سورة الغاشية:٢٢،٢٣).

ولكن مولانا المودودي يصرّ على أنّه وأتباعه من أعضاء "جماعت إسلامي": "ليسوا هيئة تبشيرية، أو جماعة للوعظ والإرشاد.. ولكنّهم منظمة من جند الله.. ليكونوا شهداء على الناس.. مهمة هؤلاء (الفرسان) استعمال القوة لمحو الظلم والأذى، والقضاء على الفوضى والعصيان والاستغلال في الدنيا." (حقيقة الجهاد المودودي).

ينّبه الله تعالى أعظم أنبيائه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (سورة الأنعام:١٠٨). ولكنّ مولانا المودودي يحتفظ لنفسه ولجماعته بالسلطة البوليسية، ولا يكتفي بهذا.. بل ويجمع إليها السلطة القضائية أيضًا.

عجبًا، لا يعطي الله تعالى أعظم المصلحين قاطبة أي سلطة دنيوية على قلوب الكافرين، ولكنّه معاذ الله، يمنحها للمودودي وجماعته بدلًا من محمّد ﷺ وجماعته. ذلك النبي الكريم، الذي تجسد فيه العطف والرحمة.. عندما يشتد في

الابتهال إلى الله تعالى ويلحِف في الدعاء، كي تتحقق على يده هداية البشر إلى صراط الله المستقيم.. فيهوّن الله تعالى عليه لهفته بقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يونُس:١٠٠)؟ أمّا ما يتعلّق بالكافرين فقد أخبره الله تعالى: ﴿وَلَو شاءَ اللّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (سورة الأنعام:١٠٨).

وفي تناقض صارخ مع المنهج المقرر عند جميع رسُل الله تعالى.. كما بيّنه القرآن الكريم بصورة عامة، ومع سيرة كلّ نبيّ بصورة خاصة.. يُعطي مولانا المودودي لنفسه الحق في قهر عباد الله وإكراههم.. حتّى يُمكِّن (جماعتِ إسلامي) التي يتزعمها.. من محو الظلم والأذى والفوضى والعصيان والاستغلال من الدنيا!.

إنّ شبق مولانا إلى السلطة الدنيوية لم يعرف حدودًا، وهو مستعد للذهاب إلى أبعد مدى لتحقيق ما يصبو إليه. لقد تملّكه (هاجس) السلطة السياسية حتى حسب عبادة الله ما شرعت للمسلمين إلا ليغتصبوا السلطة ويحكموا العالم. وليس للعبادة في نظره أي هدف روحاني. إنّها ليست في تقديره تجربة روحية، ومجالًا للقاء بين الإنسان وخالقه، ولكنّها شعائر لتحقيق الانضباط الذاتي..! يقول الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات:٥٧). فالدنيا مخلوقة بهدف عبادة الله تعالى، ولم تشرع العبادة لأي غرض آخر، ولكنّ مولانا يمضي مُصرًّا:

"لقد شرعت الصلاة والصوم والزكاة والحج لإعداد الناس وتدريبهم لهذا الغرض، أي الجهاد. كلّ حكومات الدنيا تدرب جيوشها تدريبات خاصة

ونوعية، ولقوات الشرطة ورجال الخدمة المدنية أيضًا تدريباتهم. وبنفس الطريقة يدرب الإسلام الذين يدخلون في خدمته، ثمّ يطالبهم بالذهاب إلى الجهاد لإقامة حكومة الله.." (حقيقة الجهاد، المودودي).

ما من دين في العالم يبشر بمثل هذا المفهوم المادي للعبادة. إنّما يمكن أن تكون عبادة الله تدريبًا عسكريًّا لا غير.. عند من استبد بهم هاجس شديد!

الشبق يعني شدة الرغبة، ولكن جنون السلطة.. من بين كلّ أعراض الجنون.. هو أشدّها نفاذًا للصبر، ولذلك لا يطيق مولانا الطريق المستقيم، إنّه ضيق وبطيء. والماركسية بالمثل.. لا تقبل لتحرير المظلومين طريق الديموقراطية الطويل الشاق، وتجد في طريق العنف عوضًا عنه لتُسقط حكومة الوقت المنتخبة. ولا تختلف طريقة مولانا عن الفكر الماركسي بشأن الصراع العنيف فيقول:

"هبّوا لإصلاح الناس ما استطعتم. اسعوا لتغيير المبادئ الخاطئة وإبدالها بالصحيحة. انتزعوا سلطان التنفيذ والتشريع من أيدي الذين لا يخافون الله..."

ومما يثير الدهشة أنّ صحفيًّا ذا حنكة سياسية طويلة.. مثل مولانا المودودي.. لم يدرك قاعدة (عدم جواز استعمال العنف) في إسقاط الحكومات، مهما كان السبب، لأنّ انتهاك هذه القاعدة يهدم القانون والنظام من أساسه. وقد تلتهم نار الحرب الداخلية البناء الاجتماعي ذاته.

فأولًا ليس لحزب من الأحزاب أن ينصّب نفسه قاضيًا ويفرض على غيره حسن مقاصده. وثانيًا، على فرض حسن النوايا، فلا يجوز له إدانة

الأحزاب الأخرى المعارضة له بأجمعها.. إذ لا يُتصوّر أنّ كل فرد معارض هو قاس وشرير وظالم، وأنّ كل فرد من (جند الله) تقي ورع منزه عن الأطماع والشهوات. والواقع أنّ الأحزاب التي رفعت شعار العمل الإصلاحي.. بعبارات رنانة.. وأصوات طنانة.. هي التي صارت في النهاية شرهة إلى السلطة، وتبخرت نواياها الطيبة في أتون الطمع. ويوضح مولانا بنفسه صعوبة السيطرة على شهوة السلطة فيقول: "وكما هو في معلوم الجميع.. أنّ السلطة شيطان خطير، حتى أنّ اشتهاءها يصحبه جشع لا يشبع، ويطمع الإنسان بشغف شديد إلى امتلاك كنوز الأرض، والسيطرة على بني نوعه، ليتمكن من فرض سلطانه المطلق عليهم."

ولا يعيب هذه البلاغة المتدفقة إلا أنّ الصحفي الخبير، مولانا المودودي، كثيراً ما يغفل عن المتناقضات الكامنة في كتاباته. فإذا كان مجرد التفكير في السلطة يحدث مثل هذا التحول الخطير في القلب، فما هو الضمان ألا يفسد أعضاء جماعته الإسلامية (المستقيمون)، عندما يستحوذون على السلطة المطلقة؟.. لا شك في أنّ هؤلاء الرجال (المستقيمين) قد أتموا (تدريبات الخدمة المدنية) التي فرضها الله (تحت اسم العبادة الإسلامية) من صلاة وصوم وزكاة وحج.. ولكن هذه (التدريبات) ليست وقفًا على (جماعت إسلامي) وحدها، فالمسلمون كلّهم يؤدّونها؟! نعم، عبادة (الأحمديين) غير مقبولة كعبادة إسلامية عند المودودي، فماذا عن عبادة (البريلويين) أو (الديوبانديين) مثلًا؟ وهل عبادة الشيعة (إسلامية)؟ وهل هناك من يقول بأنّ عبادة (أهل القرآن) غير إسلامية؟ ولو كان الأمر

كذلك لماذا لا تهب هذه الطوائف الإسلامية ضدّ (حكومات المبادئ الباطلة)، وتمسك بالسلطة، وتزيح الآثمين، وتقيم حكومة مؤسسة على نظام عادل؟

إنّ الكلمات مثل (عادل) و(سليم) و(آثم) مسميات نسبية. فما هو (عادل) عند (جماعت إسلامي) قد لا يكون كذلك عند (الديوبنديين). وما هو (سليم) عند هؤلاء قد لا يكون كذلك عند (البريلويين). ثمّ ماذا عن غير المسلمين؟ إنّهم بالطبع لهم نظرتهم بصدد الخطأ والصواب. ولو لم تختلف نظرتهم عن المسلمين لكانوا في صفوف الإسلام، فهل لهم بالمثل حق إسقاط حكومة هذا اليوم؟!

حُسن المقاصد وإرادة الإصلاح لا يمكن أن تكون مبررًا لإسقاط الحكومات، هناك فروق شاسعة في تعريفات (الاستقامة) لدى مختلف الأحزاب السياسية بحيث لو قبِلت كل تلك التعريفات ما أمكن اعتبار أي حزب منها مستقيمًا. على سبيل المثال: الجماعة الأحمدية عند المودودي لا علاقة لها بالإسلام؟ خلقتها الحكومة الإنجليزية بهدف تفريق الأمة الإسلامية، وتثبيطهم عن الجهاد، وتوهين قوتهم. وزعموا أنّها طابور خامس لتحطيم الأمة من الداخل.(كذا!).

ولكن الأحمدي له صورة عن نفسه تخالف تمامًا ما عند (جماعت إسلامي) فالأحمدي يؤمن بأنّ الحركة الأحمدية ما تأسست إلا لإعلاء الإسلام وبعث الحياة في المسلمين، وليس الإنجليز.. وإنما هو الله تعالى الذي غرس غرستهم بيده.. تحقيقًا لوعده الذي بشّر به أمة محمّد ﷺ. لقد

وعد بأن يرسل (المهدي) لإصلاح الأمة عند انحطاطها، ويبعث (المسيح) عند غلبة الصليب، بحجة لا تُغلب، فيكسر الصليب الذي سبب الآلام للمسيح عيسى عليه السلام. إنّ الأحمدي يؤمن بأنّ ذلك المهدي والمسيح هو الذي أسس هذه الجماعة الأحمدية، التي تشتغل بخدمة الإنسانية بروح البذل والعطاء. فهي من ناحية تدعو الناس بكل تواضع.. وتنصحهم لتغيير ما بأنفسهم، ومن ناحية ثانية، تكافح العقيدة المسيحية وتنتصر عليها في كلّ الجبهات. فكيف يمكن التصديق بأنّ الجماعة وليدة الإنجليز.. وهم أنفسهم مسيحيون؟ هل يُتوقع من الإنجليز أن يؤيّدوا، دَعك من أن يؤسسوا، جماعة أخلصت العزم على اجتثاث عقيدة التثليث، وزرع شجرة التوحيد مكانها؟ حيثما ذهب الأحمديون تذوي أعشاب التثليث وتزدهر دوحة التوحيد المباركة الجميلة، عطرة الأزهار حلوة الثمار. إذا كانت هذه ثمار شجرة زرعها الإنجليز فليتهم زرعوا بضع شجرات أخرى حتى تزداد سرعة إحياء الإسلام وفناء الصليبية!

فما يؤمن به المسلمون الأحمديون ويعرفون عن أنفسهم.. على العكس تمامًا من رأي مولانا المودودي فيهم. يرى الأحمديون مؤسس جماعتهم محبًا.. مستغرقًا في حبّه إلى أعماق القلب.. لحضرة النبي الكريم ﷺ حتى قال ما معناه:

إنّي لَنشوانٌ بِعِشق محمدٍ من بعد حب الله جلّ جلالهُ

إن كان هذا الكفر إني لكافر ربي شهيد قد سباني جماله

ويعتقد الأحمديون أنّ جذور محبّتهم لخاتم النبيين محمّد ﷺ تمتد عميقة في قلوبهم، ولكن مولانا المودودي يجزم بأنّها متعمقة في تربة الإمبريالية البريطانية. رأيان على طرفي نقيض، تعالوا بنا ندرس الرأي المخالف.

يؤكد مولانا أنّ الهدف من إنشاء (جماعت إسلامي) هو خلق جماعة من الرجال (أهل الاستقامة) من خلال التأدب الطويل بالعبادة الإسلامية، ويصل هؤلاء القوم إلى درجة من الاستعداد تجعل الإسلام يقول لهم: أنتم الآن أشد عباد الله استقامة على الأرض، إلى الأمام يا جنود الإسلام، قاتلوا من يعصي الله، انزعوا من أيديهم السلطة، اقبضوا على زمام الحكومة في أيديكم. ويرجع الفضل إلى جهود مولانا، في أنّ هذه الجماعة (المستقيمة) على أهبة الاستعداد، تنتظر حتى تصل إلى (الاقتدار) لإسقاط حكومة اليوم.

ويعتقد مولانا أنّ هذه الجماعة (المستقيمة) أسست كي تصلح البشرية، وترفع راية الإسلام في العا لم، وتمحو كلّ الإثم، وتحفر بحد السيف اسم الله في كل قلب. وادعاء مولانا المودودي بأنّ أعضاء (جماعت إسلامي) هم أقوم عباد الله.. ادّعاء في نظر الأحمديين لا أساس له. فمن ناحية المبدأ كل امرئ له الحق في أن يحسب نفسه في جانب الحق هو ومن يتبعه، فكونك على حق شيء وكونك مستقيمًا شيء آخر. ليس بوسعنا الادعاء بأننا صلحاء مستقيمون.. لأنّ الإنسان يضل في متاهات من خداع النفس، والوهم، والنفاق الصريح حتّى أنّ المرء لا يستطيع أن يقيّم نفسه بدقة. من غير الله تعالى يعرف أسرار القلب، ورغبات العقل، والأمنيات الخفية؟ هو وحده

الذي يعرف المستقيم والآثم. نعم هناك بعض الاستثناءات: فمن الناس من تبدو منهم إمارات مقنعة على استقامتهم.. لا تخطئها البصيرة بحيث يظهر حب الله في سلوكهم.. فيتكلم معهم الله تعالى كما تكلم إلى أهل الاستقامة في الماضي.. يتلألأ نور الله حولهم، كما أشعّ من قبل على القديسين والأولياء في هذه (الأمة)، وتجلّى عونه وتأييده لهم بالقول والفعل. وبناء على ذلك يرفض الأحمديون، رفضًا قاطعًا، ادعاء المودودي بأنّ (جماعت إسلامي) تأسست لرفع الإسلام. فذلك في الواقع تشويه وإهانة للدين الذي يصرّح بانتمائه إليه. بوسع أتباع المودودي أن يدّعوا بما شاءوا داخل حدود آمنة في بلاد إسلامية مثل باكستان أو السعودية، ولكن دعهم يحملوا عقيدة (إسلام بالسيف) هذه إلى مجال خارجي ليروا كيف يستقبلونهم! هل يستطيعون (أسلمة) المسيحيين.. مع اعتقادهم بأنّ المسيح عيسى عليه السلام حي في السماء منذ حادثة الصليب؟ هل بإمكانهم عندئذ كسر الصليب؟ هل يستطيع أحد أن يرفع علم الإسلام بالعقائد المودودية هذه؟

ما من شك، أنّ من وجهة النظر الأحمدية تعاليم مولانا المودودي تسيء إلى سمعة الإسلام، وتجعله هدفًا للسخرية. و(جماعت إسلامي) إذًا ليست صديقًا للإسلام، بل هي نوع من الماركسية.. خالية من القيم الروحية متعطشة للسلطة.. تستلهم تعاليمها من الكريملين الأحمر وليس أبدًا من الكعبة المشرفة.

وموجز القول، أنّ الجماعة الأحمدية لَتدمغ (جماعت إسلامي) بنفس القوة التي يستهجم بها مولانا الأحمدية لكونها بزعمه فاسدة مسيئة.

وعندما يتكرر مثل هذين الرأيين المتقابلين بين طوائف (الأمة) وأحزابها ستجد أنّ كلًّا منهم يقدح في ادعاء الآخرين بالاستقامة ويمزقه كل ممزق. فمن يا ترى الذي يهب لإصلاح الناس وانتزاع السلطة التنفيذية والتشريعية من الذين لا يخشون الله؟!

(هاجس السلطة) هو البؤرة التي يتركز فيها مفهوم الإصلاح عند مولانا المودودي. فهو ينظر إلى النبي ﷺ بمنظار سياسي، ويشرح العبادة الإسلامية برطانة عسكرية، ويفسر القرآن من منطلق المناورات السياسية البحتة. مولانا يدرك تمامًا أنّه غير مؤهل للإصلاح (بالحكمة والموعظة الحسنة).. عن طريق الإقناع والصبر والتواضع.. فيقدم لنا سياسة العنف والفوضى والفساد. وعلى أكرم الاحتمالات يمكن القول بأنّه مع ذلك حسن النية. نعم، لكن الطريق إلى سَقَر مرصوف بالنوايا الحسنة والحكم القرآني مع ذلك واضح بيّن: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ* أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (سورة البقرة:١٢و١٣).

الفصل الخامس

قانون المودودي للردّة

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾

(سورة المزّمل: ٢٠)

"في ظلّ سلطاننا.. لن نسمح لأي مسلم أن يغير دينه، ولن نسمح لأي ديانة أخرى أن تنشر دعوتها.."

(المودودي، عقاب المرتد في الشريعة الإسلامية)

لا يعرف مولانا المودودي في تطلعه إلى السلطة السياسية حدودًا. وقانون الرِدَّة الذي شرّعه ليس إلا انعكاسًا لشخصيته المستبدة المتعصبة، ولا علاقة له بالإسلام بتاتًا. يقول الدكتور إسرار أحمد، الذي عمل مع المودودي: "استعار المودودي مبادئ حركته من مولانا أبي الكلام آزاد وإخوان خيري، وأخذ أسلوب التقديم من نياز الفتح بوري، ولكنّ غروره

وصل حدًا يمنعه من الاعتراف بأنّ أفكاره تَمتُّ لأحد سواه." (د.إسرار أحمد، الرئيس السابق لمنظمة الطلاب بالجماعة الإسلامية المودودية، إسلام أور باكستان، لاهور، خدّام القرآن، ١٩٨٣، ص٧٢).

وبالمثل فإنّ آراء مولانا في موضوع الرِدَّة، والتي ترجع أصولها إلى تفسيرات خاطئة لبعض فقهاء المسلمين، تقوم في الحقيقة على مسيحية القرون الوسطى. كانت مدرسة الديوبنديين تختلف مع المؤتمر القومي الهندي، وهو منظمة الأغلبية الهندوسية السياسية.. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تشتبك في معركة دفاعية مع حملة شُدّهي.. أمدّت هذه المدرسة مولانا بتفسيراته الخاطئة حول هذا الموضوع. أمّا البصمات الماركسية، والتي تظهر واضحة في فكره، فتعود إلى قراءاته عندما كان محررًا شابًا سهل التأثر. وإذًا فإنّ حركة (جماعت إسلامي) مزيج غريب من ممارسات عصور الظلام المسيحية في القرون الوسطى مع ضيق الأفق والتعصب الديوبندي الوهابي، مصحوبًا بنزعة ماركسية فوضوية.

وكما رأينا في الفصل الأول من هذا الكتاب.. أنّ مفهوم الحرية الدينية لا يتسم بالتطور أو أنّه مبدأ وراثي.. ولكنّه ظاهرة دورية، كلّما ظهر واحد من الأنبياء أو المصلحين قوبل بالمعارضة، فيُتّهم بتفريق وحدة المجتمع، وتمزيق الأعراف الموروثة، ويرمى بالارتداد، ويشهر به. وفي نهاية الأمر يُفلح النبي في إرساء أساس الحرية الدينية. ولكن بمرور الأيام يتجمد هذا الدين الذي انتشر بفضل هذه الحرية.. بسبب ضيق الأفق والتعصب في هيئة عقيدة صُلبة، ينكر أتباعها حق الاختلاف.. وهلمّ جرا.

في زيارته الأخيرة للمعبد، قال المسيح عيسى بن مريم عليه السلام: "اعطوا ما لقيصر لقيصر، واعطوا ما لله لله." (إنجيل مرقص ١٢ : ١٧).

بهذه العبارة الواضحة فصل المسيح ما بين العقيدة الدينية وبين السلطة السياسية. ولكن بعد أن حصلت الكنيسة المسيحية على السلطة السياسية عام ٣١٢م تمزقت في مدى سنة واحدة بفعل الانشقاقات. قاسى المسيحيون الأوائل أشدّ الاضطهاد لأكثر من ثلاثة قرون، فازدهروا. ولكن عندما تنصر الإمبراطور قسطنطين واجهت الكنيسة اعتزال الرهبان، وانشقاق الدوناتست، وردّة آريوس. وعلى امتداد تاريخ الكنيسة المسيحية كانت الهرطقة أو الارتداد والانحراف عن الأرثوذكسية (التقليدية).. محلّ اهتمام عميق، لأنّها كانت تتعلق بمفهوم الإله، أي ألوهية المسيح.

فإذا كان المسيح إلهًا بالمفهوم المطلق، ثمّ هو في نفس الوقت متميز عن الرب، لكان معنى ذلك أنّ للمسيحيين إلهين، ولكانت عقيدة ثنوية وليست توحيدية. أمّا إذا فسرت العلاقة البنوية حرفيًّا لكان الإله الأب سلفًا للإله الابن. ولكن منطق هذه العلاقة يعني أنّ المسيح ليس إلهًا بمعنى الكلمة.. لأنّه لا بد من فاصل زمني بين (وجود الابن مع الأب) وبين (وجود الإله الأب وحده). (براندون، قاموس تاريخ الأفكار، نيويورك ٧٣).

ويعتقد المسيحيون الأرثوذكس بأنّ المسيح الابن مساو تمامًا في الجوهر للإله الأب، في حين يرى آريوس (٢٥٦– ٣٣٦) أنّه مشابه وليس مساويا له.

ثمّ جاءت مسألة أم المسيح، فقد أعلن نستوريوس (٤٥١) أنّ مريم كانت أمّا لعيسى الجسد فقط، وليست أما لعيسى الإله، ولذلك رأى أن

تسمّى أم المسيح. ولكن المفهوم الأرثوذكسي هو أنّ مريم أمٌّ حقيقية ليس للإله نفسه، وأنّما (للكلمة المتجسدة).. أو الرب.. متضمنة الطبيعتين: الإلهية والبشرية للمسيح.

في عام ٣٥٢م أصدر المجمع المسكوني الأول للكنيسة في نيقوسية البيزنطية قانون الإيمان المسيحي حول لغز عقيدة التثليث، وحكم المجمع بالحرمان على آريوس المتمسك برأيه، وأخرجه من شركة المؤمنين، ونفاه الإمبراطور قسطنطين، وأمر بإحراق كل كتب آريوس وإعدام من يحوز منها شيئا.

اكتملت (دورة) الحرية الدينية التي بدأها عيسى الناصري ﷺ يوم شرّع الإمبراطور جستنيان (٤٨٣-٥٦٥م) عقوبة الإعدام لمن يرتد، وتقررت هذه العقوبة في القانون الروحاني بدءً من عام ٥٣٥م.

إنّه منعطف مأساوي في مسار حرية الضمير إذ تَلقى حتفها على يد المسيحيين الرومان، الذين كان أسلافهم الوثنيون يحرقون المتنصرين ليكونوا وقودًا يتسلى لمرآه نيرون الروماني (٦٤م). وما دام المسيحيون يعانون الاضطهاد على يد سلطات سياسية غير مسيحية تجد الكتاب المسيحيين يدافعون بحماس عن حرية العقيدة، ولكن أن ينتقل التاج الإمبراطوري ليوضع على رأس المسيحيين.. عندئذٍ تنظر الكنيسة بعين الكراهة نفسها إلى (الفردية!) في الدين، وتراها انعزالًا أو تمردًا.

ما كان لله حتى منتصف القرن الخامس الميلادي.. أصبح من نصيب القيصر.. فالكنيسة أصبحت اليد اليمنى للسلطة السياسية. وفي أثناء الحملة ضد جماعة (دوناتست) احتج سانت أوجستن (٣٥٤-٤٢٠م) بقوله:

"هناك عقاب تطهيري تنزله كنيسة المسيح بالخطاة. إنها تعاقبهم بروح المحبة كي تصلحهم وتستنقذهم من الخطية.. متخذة كل الوسائل لخيرهم، ولضمان خلاصهم الأبدي.." (مختارات من مكتبة آباء نيقوسيا ومن قبلهم، بفالو، ١٨٨٧، ج٤، ص٦٤٠).

في عام ٣٨٥م اتُّهِم الأسقف الأسباني بريسكيليان بالدعوة إلى المانوية والتبتل التام. ونفى الرجل عن نفسه التهمة، ولكنّه حوكِمَ وقضي عليه مع بعض رفاقه بالإعدام حرقًا.

ويتفق مارتن لوثر الألماني (١٤٨٣-١٥٤٦م)، رئيس كنيسة البروتستانت الإصلاحية مع سلفه الروحاني في الرأي حيث يقول:

"للأكليروس (رجل الدين المسيحي) سلطان على الفكر، ولكن مساندة الدولة ضرورية لتوقيع الحرمان المطلق في حماية القانون حتى يجتث الإثم.. وإن كان التخلص من الخطية مستحيلا." (د. البرج.أكتون، تاريخ الحرية، ماكميلان، لندن ١٩١٧، ص ١٦٢).

أما جون كالفن (١٥٠٩-١٥٦٤) رجل الدين الفرنسي البروتستانتي فهو حقًّا الذي ألهم مولانا المودودي فقد كان كالفن يريد نشر الدين بالسيف، وعقاب الارتداد بالقتل، كتب يقول: "ينبغي عقاب الكاثوليك المحرضين على العصيان.. بناءً على أنّ إنزال العقاب لجلال الرب واجب بنفس القوة التي يغضب بها صاحب التاج." (المرجع السابق ص١٧٨).

وبينما كان كالفن يلهم مولانا.. زوده المفكر الإنكليزي توماس هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩) بالأساس الفكري المنطقي، وذلك في كتابه (ليفياثان).

في رأي هوبز أنّ المعجزات من علامات النبوة الصادقة ولمّا كان عصر المعجزات قد انتهى، ولم يعد هناك مجال لهداية الناس عن طريق النبوة أو الوحي الإلهي، فالملك وحده هو صاحب السلطة المدنية والدينية وهو وحده أيضًا صاحب القدرة على التشريع، لأنّ من يملك السيادة الشرعية لتطبيق النصوص المكتوبة.. له أيضًا سلطة التصديق على تفسيرها أو عدم الموافقة عليها.

والابتداع، في رأي هوبز، حكم شخصي، وهو بذلك يتعارض مع الرأي السائد الذي يقرره الملك. فاستحقاق العقاب إذًا ليس على خطأ التقدير الملازم للهرطقة.. وإنما العقاب يكون على العصيان الشخصي ضد السلطة. فإذا كان ولاء المرء نحو ما يمليه عليه ضميره فإنّ ذلك يجيز للأفراد العاديين عصيان أمراءهم حفاظًا على دينهم، سواءً كان هذا الدين صحيحًا أو باطلًا. وهذا عند هوبز.. هو الفوضى والخراب التام. (هوبز، ليفياثان، الموسوعة البريطانية، ١٩٥٢، شيكاغو).

وليس ثمة ارتداد من غير ابتداع، ولا ابتداع من غير عقيدة. ولقد اتضحت العقيدة الكاثوليكية الرومانية بأسلوب دقيق لا لبس فيه.. في قانون الإيمان المسيحي الذي يقول: نعبد إلهًا واحدًا مثلث الأقانيم في ثالوث والثالوث في واحد، لا يمزج بين الأشخاص ولا يجزئ الجوهر.

من وحي تعاليم القرون الوسطى الكنسية هذه، وليس من الإسلام أبدًا، طوّر مولانا المودودي المبادئ الأساسية لمولانا أبي الكلام آزاد وإخوان خيري عن (الحكومة الإلهية). (د.إسرار أحمد، إسلام أور باكستان). زوده كل من سانت أوغسطين ومارتن لوثر، وجون كالفن، وتوماس هوبز، بالأفكار

اللاإسلامية عن الأرثوذكسية (السلفية الأصولية)، والدجماتية (الإلتزام المبدئي الحازم)، والإبتداعية (البدع). وأمدّوه أيضًا بفن البيان المتعصب.

المستشرقون الذين لا يدعون فرصة تفلت من أيديهم لإنتقاد الإسلام يوافقون على خلو الإسلام من فكرة الدجماتية والابتداع. يقول جولد تسيهر:

"لا يمكن أن يُقارن دور الدجماتية في الإسلام بذلك الدور الذي كان لها في الحياة الدينية لأي كنيسة مسيحية. فليس ثمة مجامع ولا مجالس تضع الصيغ الدينية بعد مشاورات ومجادلات مثيرة.. بحيث تصبح تلك الصيغ معتقدًا لأهل الملّة. ليس هناك مؤسسة كنسية تعتبر معيارًا للأصولية ولايوجد تفسير واحد للنصوص المقدسة معتمد.. بحيث تُبنى عليه وحدة تعاليم وتأويلات الكنيسة. فالمتفق عليه هو المرجع الوحيد لكل المسائل الدينية المعمول بها.. عبارة عن فقه مرن.. حتى لَيعصب القول بأنّه محدد. وهناك اختلافات في شرح مفاهيمه. وفي الإجماع على وجه الخصوص.. حيث يفترض أنّ المعمول به هو المتفق عليه بلا خلاف، فإنّما هو متفق عليه عند فريق لا يكون مقبولًا بهذه الصفة عند فريق آخر."

ويقول المستشرق اليهودي المعاصر، برنارد لويس، الذي لا يمكن اتهامه بمناصرة الإسلام: "كان المعوّل على ما يفعله الناس.. التطبيق قبل النظرية. وأُبيح للمسلمين على وجه العموم أن يعتقدوا بحسب ما يقومون به فعلًا.. ما داموا يؤمنون بالحد الأدنى الأساسي: وحدانية الله ونبوة محمّد، والعمل وفق قواعد السلوك الإجتماعية." (برنارد لويس، يهود الإسلام، برنستون، ١٩٨٣ ص٥٣)

لم يعد الإسلام الحقيق ملهمًا لمولانا المودودي فبعد أن استحدث مفاهيمه عن الارتداد والابتداع، لم يبقَ بوسعه التنصل من منطق (كالفن)، الذي يشرّع (عقوبة الموت للردّة). ومولانا لديه من التهوّر ما يكفي ليفتري هذه العقوبة على النبي ﷺ.

كتب مولانا كتيبًا حول هذا الموضوع، واستشهد فيها بالعمليات الحربية التي قام بها سيدنا أبوبكر ضدّ القبائل المتمردة.. واتخذها دليلًا على أنّ القتل عقوبة الارتداد. وقبل بحث هذه النقطة ينبغي تقديم نماذج لبعض كتابات مولانا.. لنكشف عن مدى تأثره بالنماذج المسيحية.

وخلاصة القول، أنّ الآباء المسيحيين في العصور الوسطى بأوروبا شرّعوا القتل عقوبة للارتداد عن المسيحية وتعريفهم للمسيحية هو التعريف الوحيد الواجب القبول. وواضح أنّ السلطان المودودي.. في حكومة مودودية.. هو الذي سوف يقرر من هو المسلم ومن غير المسلم. وماذا سيكون قراره يا ترى؟ نجد الجواب في كتابات مولانا، وهي معبرة واضحة تمامًا.

يرى مولانا المودودي أنّ الأحمديين مرتدون، وأنّهم أقلية (غير مسلمة). ولكن الكفر عنده.. ليس وقفًا على الأحمديين وحدهم، فأهل القرآن.. أتباع المدرسة الفكرية للسيد برويز.. كفار كذلك ومرتدون. والواقع أنّ كفرهم أخطر من كفر القاديانيين. ولقد صنّفهم مولانا أمين أحسن إصلاحي، (مودودي التفكير، وكان يُعتبر اليد اليمنى للمودودي) ووضعهم بين المطرودين من الإسلام، حسب ترتيب نشره في جريدة (تسنيم) اليومية، لسان حال (جماعت إسلامي) جاء فيه: "ينصح بعض الناس (أي أهل

القرآن) أنّه ما دامت الشريعة الإسلامية لم تُنسخ أبدًا، فينبغي أن تُشكل الحكومة في هذا البلد، باكستان، طبقًا للمبادئ القرآنية. وإذا أراد هؤلاء الناس بقولهم هذا أنّ قواعد الشريعة محصورة في القرآن فقط وأنّ القوانين الأخرى ليست من الشريعة.. فهذا كفر صريح. إنّه كفر يماثل كفر القاديانيين وهو في الواقع أشدّ خطرًا."

هذا هو الحكم ضدّ القاديانيين وضد أهل القرآن. هلمّوا نلقي نظرة فاحصة لاكتشاف ما إذا كان الكفر مقصورًا عليهما وحدهما أم لا؟؟

ما ليس مودوديًّا فهو عند المودودي كفر. والتعاليم المودودية تماثل قانون الإيمان المسيحي أي إنحراف عنه كفر! يقول مولانا:

"٩٩,٩% من الأمة الإسلامية لا علم لهم بالإسلام، ولا قدرة لهم على معرفة الصواب من الخطأ، إنهم لا يوجهون أخلاقياتهم ولا أفكارهم وجهة الإسلام. المسلم منهم مسلم لأنّ أباه كان مسلمًا، وانتقل إليه الإسلام جيلًا بعد جيل. لا يقبل هؤلاء المسلمون الحق لأنهم يعتقدون أنّه حق، ولا يرفضون الباطل لأنّهم يعلمون أنّه باطل. ولو وضعت أمور المسلمين في أيدي هؤلاء الناس.. فمن ظنّ أنّ أمور المسلمين سوف تُدار كما ينبغي كان غارقًا في سعادة وهمية."

ويستطرد مولانا: "عملية الانتخاب الديموقراطي تُشبه خض اللبن ليستخرج منه الزبد، ولو كان اللبن مسمومًا لأنتج زبدًا مسمومًا. فالذين يحسبون أنّ الحكومة الإلهية ستقوم تلقائيًا بعد ما تتحرر البلاد المسلمة من الأغلبية الهندوسية مخطئون.. بل سينتهي الأمر إلى حكومة كافرة من المسلمين."

ومولانا أشد وضوحًا في الفقرة التالية من نفس الكتاب:

"إن الأمة التي تُدعى مسلمة تتألف من كل صنوف النفايات. كل خُلُق الكفار موجود فيهم. شهود الزور أمام محاكمهم أكثر مما تجده في محاكم الأمم الأخرى. فيهم الرشوة والسرقة والزنا والزور. وعلى الجملة، ما من نقيصة أو فساد في الكفار إلا وهو فيهم."

حقًّا، مراسيم مولانا وإنذاراته تتسم بالشمولية الواسعة. وقد يظن البعض أن هذه الأحكام تشير إلى ٩٩,٩% من المسلمين العاديين وحدهم، وأنّه يستثني الزعماء والمثقفين. لا! لقد أصدر مولانا تصريحًا تكميليًّا بشأن قادة المسلمين والعلماء، ليوضح أن أي مسلم واقع في الضلال لا محالة إذا لم يقبل بقانون الإصلاح المودودي. يقول مولانا:

"القادة السياسيون الذين حصلوا على تعليم غربي، والعلماء وخبراء الفقه الإسلامي، كلّ هؤلاء في الضلالة سواء، كلّ فئة منهم بحسب وسائلها وغاياتها. لقد ضاع منهم طريق الحق، وتخبطوا عميانًا في الظلمات. وليس لأحد منهم بصيرة إسلامية."

إذًا عند المودودي لا (٩٩,٩%) من المسلمين ولا قادتهم الدينيين ولا زعماءهم السياسيين.. على صراط مستقيم. كلّهم قد ضلّوا السبيل، آراؤهم غير إسلامية، وكل أنواع الإجرام الموجودة في الكفار موجودة بينهم.

وبعد سماع هذا الوصف المودودي، لو قال أحد من الناس بأنّ الأمة الإسلامية (حفنة من المرتدين) لأجابه المودودي: "لقد أصبت كبد الحقيقة! ومولانا لا يتكلف في اختيار كلماته، وعندما تحدث عن الذين تركوا

جماعته.. (جماعت إسلامي).. قال: "ليس هذا طريقًا فيه رجعة.. الرجوع عنه يعني الارتداد عن الدين."

فإذا كان الخروج من (جماعت إسلامي) والانضمام إلى جماعة أخرى يعني الارتداد، فمعنى ذلك بالضرورة أن الجماعة الأخرى هذه.. أيًّا كانت.. جماعة كافرة. وبالمثل فالمسلمون الذين يصلون عند مقابر الأولياء تبركًا، والشيعة الذين يظنون في الخلفاء الراشدين قبل عليّ (رضي الله عنهم جميعًا) أنهم اغتصبوا الخلافة.. كلهم كفار ومن المسلم به عند مولانا، ومعه علماء ديوبند، أنّ أهل السنة والجماعة في الهند وباكستان المعروفين بإسم البريلويين كفار كذلك.

والآن، وبعد أن أعلن مولانا بالقول الواضح أن جميع غير المودوديين كفار.. يتناول بتفصيل شديد موضوع (المسلمين بالمولد). وهذه واحدة من أشد الحجج صعوبة في فكر المودودي. وعن إسلام المودودي قال عن نفسه:

"لقد خلعت عني طوق الإسلام الموروث، وقرأت القرآن، ودرست سيرة محمد ﷺ، فأنا الآن مسلم من جديد."

وعلى هذا الأساس وضع المودودي نظامًا مستحدثًا للدخول في الإسلام من جديد. ويكشف عن خطته فيقول: "عندما توضع عقوبة إعدام المرتد موضع التنفيذ في حكومة إسلامية جديدة.. يبقى المسلمون داخل الجماعة المسلمة. لكن هناك خطر من موجود عدد كبير من المنافقين بينهم، وهذا يمثل تهديدًا دائمًا بالخيانة.

وحلًّا لهذه المشكلة أرى أنّه حينما تقع ثورة إسلامية.. يعلن جميع المسلمين غير الملتزمين تحولهم عن الإسلام، وخروجهم من المجتمع المسلم وذلك خلال عام واحد. وبعده يعتبر المسلمون بالمولد مسلمين وتسري عليهم كل القوانين الإسلامية ويكونون ملزمين بأداء كل فرائض الدين الواجبة ومن أراد منهم بعد ذلك ترك الإسلام يعاقب بالإعدام ولسوف تُبذل كل الجهود الممكنة لإنقاذ من يمكن إنقاذه من الناس وتنجيته من الكفر أما من يتعذر إنقاذهم فيُستبعدون من المجتمع إلى الأبد (كيف؟ بالإعدام طبعًا). وبعد تطهير المجتمع الإسلامي نبدأ من جديد بالمسلمين الذين قرروا باختيارهم البقاء في الإسلام." (المودودي: عقاب المرتد، ص٨١)

مولانا.. لا يدلنا على القواعد التي بنى عليها اجتهاده هذا.. أعني تأخير قانون إعدام المرتد، على أية حال هولن يؤخره كثيرًا إنها فترة مؤقتة لحين إنشاء دولة إسلامية، أي على سبيل التنازل من جانبه! وبعد فترة السماح الكريم هذه يضيع المسلمون الذين ولدوا (كفارًا)! ويشرح مولانا سبب عجزه عن استثناء هؤلاء التعساء فيقول: "هناك مسألة أخيرة حول موضوع عقوبة الإعدام التي قد تزعج الكثير من بيننا. غير المسلم الذي يعتنق الإسلام باختياره ثم يرتد إلى الكفر.. هذا يمكن القول بأنّه قد ارتكب الخطأ العمد، ولكن ماذا بشأن من ولد لأبوين مسلمين ولم يعتنق الإسلام! هذا مسلم بالمولد فإذا بلغ سن الرشد، وأراد الخروج عن الدين هل تهدده بالإعدام ليبقى مسلمًا؟ هذا ليس عدلًا، كما أنّه يزيد في عدد المولودين منافقين في المجتمع الإسلامي. هناك حلان لهذه المسألة أحدهما

يتناول الناحية العملية، والثاني يتعلق بالمبدأ. فمن ناحية المبدأ، ليس هناك تمييز بين من يولدون على دين ما وبين من يتحولون إليه، ولا يميز دين بينهما.. لأنّهما كليهما يخضعان لأحكام الشريعة نفسها. ومن المحال وغير المعقول.. معاملة أبناء المنتسبين إلى الدين على أنهم كفار أو ذميّون إلى أن يبلغوا رشدهم، ثمّ تخيرهم بعد ذلك في قبول دينهم الذي ولدوا فيه أو يرفضونه.. وهذا بالطبع يعني الجنسية أيضًا. ولا يمكن لمجتمع في العالم أن يدير أموره بهذه الطريقة." (المرجع السابق ص ٧٢)

لو أننا قبلنا بمشروع المودودي بأنّ الإسلام يقرر الإعدام عقوبة للمرتدين وأنّ المسلمين كفار باستثناء جماعت إسلامي، فليس بوسعنا اعتبار المسلمين غير المودوديين مرتدين.. حتى ولا باتباع منطق المودودي نفسه، فهم غير مرتدين.. لأنهم مولودون (كفارًا). ويبدو أن مولانا يريد أن يحصل على (الكعكة) ويلتهمها أيضًا. فالمسلمون الذين لا ينطبق عليهم مفهوم الإسلام المودودي أعطوا صفتين: (مسلمون بالمولد) والأولى أنهم كفار لأن آباءهم ربوهم في بيئة كافرة. ثم وصفوا بعد ذلك (بالرِدَّة) لأنهم عند البلوغ لم يرفضوا إسلام آبائهم، وفضلوه على إسلام المودودي. وغير المسلم الذي يدخل الإسلام ثم يرتد يستحق الإعدام لأنّه صار مسلمًا، ويعرف تمامًا أنّه لا مهرب له. وبالمثل يعامل غير المودودي المسلم بالمولد على أنّه (مرتد) لأنّه عندما بلغ الرشد لم يقبل بالإسلام المودودي المعدّل.

هذه هي الحجة التي تكشف بوضوح شخصية المودودي المستبدة، المناورة، المتعصبة. فلا مناص (للمسلم بالميلاد) ولا المسلم (المتحول إلى

الإسلام) من الوقوع بين براثنه. إنّه يلوي عنق القاعدة القرآنية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ في هذه الكلمات:

"هذا يعني ألا نكره أحدًا على اعتناق ديننا حقًّا، ولكن يجب تحذير من يودّ النكوص بأنّ الباب ليس مفتوحًا للمرور الحر. إذا أردت الدخول فافعل ذلك بعزم أكيد لأنّه لا مخرج لك."

علّق أحد علماء (أهل القرآن) البارزين، غلام أحمد برويز، على التفسير المودودي للآية المذكورة قائلًا:

"إسلام المودودي مصيدة للفئران.. من دخلها فلا مهرب له."

والحجة الأساسية لدى مولانا أنّ كل دين يعتبر نسل أتباعه من أتباعه. فكل مولود لأبوين مسلمين يعتبر ملكية إسلامية.. وإن كان من الوجهة العملية كافرًا. فإذا كان حق الملكية قد تقرر بشأن هؤلاء المواليد، فكيف عند سن الرشد يكونون أحرارًا في اختيار دين آخر؟ وعند توضيح هذه النقطة غفل مولانا أو تغافل عن حديث النبي ﷺ:

"كل مولود يولد على الفطرة. فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجّسانه." (البخاري).

فلو كانت الحجة الرئيسية للمودودي صحيحة.. فلماذا يقصرها على ذرية المسلمين وحدهم؟ لماذا لا يطبقها على أبناء غير المسلمين أيضًا؟ إنّهم حسب الحديث النبوي ولدوا على فطرة الإسلام! وهذا يعطي للحكومة المودودية سيطرة تامة على كل طفل غير مسلم، ولا فرق هناك بين كون الطفل أو عدم كونه من مملكة المودودي! وبالإضافة إلى غفلة مولانا عن

الحديث النبوي الشريف المشار إليه آنفًا.. فإنّ قوة منطقه جرته إلى هذا السخف!.

الواقع أن مولانا قد استنسخ مسيحية القرون الوسطى المظلمة.. كلمة بكلمة.. في حركته (جماعت إسلامي). كتبت إليزابيث لابروث، المؤرخة للعصور الوسطى المسيحية، تعلق على سياسة المودودي المتعصبة.. فقالت:

"إنها، أي سياسته وفكره، على مستوى الأفراد تخلق إما شهداء أو منافقين." (قاموس تاريخ الأفكار ج٤)

والآن قارنوا بين ملاحظة المؤرخة لابروث وبين هذه الفقرة من كتاب المودودي (عقوبة الارتداد في الإسلام): "لو كان (أي المرتد) صادقًا في عزوفه عن حياة النفاق، ويرغب حقًّا في الثبات على عقيدته.. فلماذا لا يقدم نفسه للموت؟"

ولما كان المفهوم المودودي هو السبيل الأوحد للخلاص.. فإنّ مولانا لا يسمح بنفس الحقوق والامتيازات لأتباع أي دين آخر، ولا يسمح بأي نشاط تبشيري للديانات الأخرى في الدولة المودودية. يقول مولانا:

"قتل المرتد قد حسم الأمر. فما دمنا لا نسمح لمسلم أن يدخل في دين آخر أصبحت مسألة السماح للملل الأخرى بفتح إرساليات تبشيرية لنشر عقائدها داخل حدودنا مسألة غير ذات موضوع. ليس باستطاعتنا احتمال ذلك أبدًا!."

حسنًا، هل يستطيع (كافر) أن يدعو لفكره بين (الكفار) الآخرين؟ أعني هل يمكن لمسيحي أن يفتح إرسالية للدعوة المسيحية بين اليهود أو

الهندوس مثلًا؟ هل بوسع (آريا سماج)، الذين لا يؤمنون بعبادة الأصنام، ويعبدون إلهًا واحدًا.. هل بوسعهم الدعوة بين أتباع (سناتن دهرم) الدهريين؟ يجيب مولانا:

"لا يطيق الإسلام انتشار الديانات الباطلة في العالم.. فكيف يرخص لدعاة الملل الباطلة أن ينشروا الباطل، ويدعوا الآخرين إلى النار التي هم ذاهبون إليها؟"

ويوافق المودودي على أنّ اليهود والنصارى أهل الكتاب، ولكنه يرى منعهم من دعوة عباد النار أو الأصنام أو المشركين لعبادة إله موسى وعيسى.. الإله الواحد.. وفي هذا ما يقربهم خطوة نحو الإسلام.

وباختصار، يتنازل الشيخ المودودي فقط في حالة الكافر بالمولد، فهذا لا يعاقب بالقتل إذا رفض الدخول في الإسلام. ولكن.. إذا كان كذلك، فلماذا يقتل الكافر الجديد إذا ارتد؟ إذا كان للكفار عقوبة بأي حال.. فلماذا القتل؟ لماذا لا يكون النفي أو السجن المؤبد مثلًا.. حتى لا يتمزق المجتمع الإسلامي؟ هنا يوضح المودودي المسألة وفي ولاء صادق لمنطق سانت أوغسطين.. بأنّ قتل المرتد إنما هو لصالح المرتد نفسه فيقول:

"هناك طريقان لا غير.. للتعامل مع المرتد: إما أن نجعل منه مجرمًا.. وذلك بتركه حيًّا مع حرمانه من كل حقوق المواطنين، أو إما أن تنهي حياته بالقتل. من المؤكد أن الطريقة الأولى أشد قسوة من الثانية، لأنها تجعله (لا هو حي ولا هو ميت).. فالقتل أفضل له، إذ يضع نهاية لعذابه ولعذاب المجتمع كليهما في وقت واحد."

ولكن العقوبة التي يقررها مولانا للمرتد ليست فعلًا كتعذيب (أوغسطين) المفعم بروح المحبة.. ذلك لأنّه يخلصه ويطهره للحياة بعد الموت، ولكن بقتل المرتد يكون مولانا قد أسلمه إلى نار الجحيم، وتخليص المرتد من الآلام المؤقتة في حياة منبوذة يرسل به إلى نار ذات عذاب مقيم! مولانا قبل ذلك يحرم المرتد المفجوع من فرصة التوبة والنجاة.

وفي الوقت الذي يتمتع الكافر بفرصة التوبة في أي لحظة من لحظات حياته.. لا يستطيع المرتد أن يعود إلى الإسلام لينتفع من رحمة الغفار التواب!

وتمشيًّا مع منطق مولانا حتى نصل به إلى نتيجته السخيفة المنافية للعقل.. للمرء أن يسأل: لما كان المقصود من عقوبة الموت للمرتد هو ردع الذين يبدلون دينهم باستهتار حتى لا يدخلوا مجتمع الإسلام، فما هو اقتراحك، يا مولانا، لمنع هؤلاء القوم المذبذبين من أن يولدوا في بيوت إسلامية؟!

وليست سياسة الوحشية هذه، القائمة على الإكراه والتعصب.. وقفًا على السياسة الداخلية في الدولة المودودية.. بل إن سياستها الخارجية أيضًا تعتمد على القوة والتعصب. يقول مولانا:

"الإسلام لا يريد أن يحدث هذا الانقلاب في قطر أو بضعة أقطار، إنما يريد لينتشر في كل بلاد الدنيا. إنّ مهمة (جماعت إسلامي) أن يحدث الانقلاب أولًا في وطنها.. إلا أن الثورة العالمية هي هدفها النهائي."

لا شك أن الانقلاب العالمي هو الهدف النهائي للإسلام.. ولكن الإسلام يريده انقلابًا روحيًّا، وليس ثورة ماركسية دموية كتلك التي استلهم مولانا (أيديولوجيتها) من الشيوعيين. وليس من قبيل المصادفة أبدًا أن

الجدلية المودودية العنيفة تحذو حذو الجدلية الشيوعية. استبدل عبارة (الحزب الشيوعي)، وستجد أصداء صوت ماركس ولينين في كتابات المودودي. ثورة مولانا المودودي لا تقوم على العدل.. بل على المادية.. وما ينشأ عنها من دكتاتورية فردية. ولا تختلف السياسة المودودية تجاه الدول المجاورة كثيرًا عن السياسة الخارجية الشيوعية. فيقول المودودي:

"إن العلاقات والروابط الإنسانية متشابكة إلى حد لا يسمح لأي حكومة أن تتصرف بحريتها الكاملة وفقًا لمبادئها ما لم تكن هذه المبادئ نفسها نافذة المفعول في البلاد المجاورة. ومن ثم فإن الجماعة الإسلامية لن تكتفي بتوطيد الإسلام في منطقة واحدة منفردة، بل ينبغي لسلامتها الذاتية وللصالح العام.. أن تسعى للتوسع في جميع الاتجاهات. فمن ناحية تنشر فكرها (أيديولوجيتها)، ومن ناحية أخرى تدعو الناس من كل الشعوب لقبول عقيدتها.. لأنّ النجاة فيها وحدها. فإذا أتيح للدولة الإسلامية الاقتدار (أي القوة والموارد).. فسوف تحارب حتى تقضي على الحكومات غير الإسلامية، وتقيم في مكانها حكومات إسلامية."

هذه الفقرة هي في الواقع نسخة من البيان الرسمي الشيوعي (المانيفستو الشيوعي).. بعد إدخال التغييرات المناسبة.

ولا يتردد مولانا في أن ينسب سياسته العدوانية هذه إلى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم فيقول:

"كانت هذه هي السياسة التي اتبعها النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون. كانت جزيرة العرب هي المكان الذي نشأ فيه الحزب الإسلامي الأول،

ولزمه ترسيخ أقدامه فيه. بعد ذلك أرسل النبي ﷺ دعوات إلى البلاد المجاورة، ولكنّه لم يتريث ليرى ما إذا كانت دعواته ستلقى القبول.. فما إن امتلك زمام القوة حتى ابتدأ الصدام مع الإمبراطورية الرومانية، وأصبح أبوبكر قائد الحزب بعد النبي ﷺ، فهاجم الرومان والفرس كليهما. ثم في النهاية أحرز عمر النصر عليهما."

هذا، ولا شك، إعلان عام بالحرب على جميع البلاد غير الإسلامية المجاورة. وهم بمنجاة من العدوان ما دامت الدولة المودودية ضعيفة بدون "اقتدار". وكما أمهلت الحكومة المودودية رعاياها من (المسلمين بالمولد) سنة واحدة ليختاروا بين الإسلام المودودي أو يرفضوه، ويقعوا تحت المعارضة المحلية.. فإنّ الحكومة المودودية سوف تغزو جيرانها بعد مهلة لا تتجاوز وصولها إلى حد (الاقتدار).

ولا يوافق المودودي على الرأي المقبول بين المسلمين عامة.. أن الحرب قد فُرِضت على النبي ﷺ، وعلى خلفائه أبي بكر وعمر من جانب الإمبراطورية المسيحية والإمبراطورية المجوسية اللتين أرادتا سحق الإسلام.. وأنّ المسلمين على فقرهم في الإمكانيات المادية.. اضطروا إلى القتال دفاعًا عن النفس.

الفصل السادس

الارتداد في نظر الإسلام

[اكتبوا لي من تلفَّظ بالإسلام من الناس] (محمد ﷺ)

مفهوم الطرد من الدين.. كما كان في مسيحية العصور الوسطى.. وكما عرضه مولانا المودودي.. مفهوم غريب عن الإسلام، بل وليس هناك كلمة واحدة تعبّر عنه في اللغة العربية. لا شكّ أن بعض علماء الفقه القدامى اعتبر التراجع عن الإسلام جريمة من الكبائر، ولكنّ تعريفهم للمسلم كان من السعة بحيث لا يمكن أن يتهّم بالارتداد أحد ممن ينتسب إلى الإسلام.

أعطانا النبي ﷺ تعريفين للمسلم: الأول عندما أجري أول إحصاء سكاني في المدينة.. قال النبي ﷺ : "اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس." (صحيح البخاري، باب كتابة الإمام الناس).

وفي مناسبة أخرى قال النبي ﷺ: "من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله. فلا تخفروا الله ذمته." (صحيح البخاري، باب فضل استقبال القبلة).

ولكنّ مولانا المودودي، ومن على شاكلته من العلماء الذين يناصرون الاستبداد (الدكتاتورية) والتحكم المطلق في بلاد الإسلام، أضافوا إلى التعريف النبوي البسيط مواصفات شتى. وعلى حد تعبير الإمام الغزالي (١٠٥٨/١١١٣م) فإنّهم "ضيقوا رحمة الله الواسعة لتكون الجنة وفقًا على عصبة من رجال الدين." (الغزالي، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، القاهرة، ١٩٠١).

القاضي محمد منير رئيس المحكمة العليا السابق في باكستان، والذي رأس محكمة التحقيق في فتنة عام ١٩٥٣ بإقليم بنجاب، بعد أن جمع نتائج جهود هؤلاء المشايخ لتعريف الإسلام عقب قائلا:

"بعد استعراض التعريفات المتعددة التي قدمها العلماء عمّن هو المسلم.. لسنا بحاجة إلى التعقيب سوى أنّه لم يتفق اثنان من علماء الدين على هذه المسألة الأساسية! ولو حاولنا بدورنا أن نقدم تعريفًا كما فعل علماء الدين هؤلاء.. وخالف تعريف الآخرين، لكنّا عندهم خارجين من ملة الإسلام. ولو أخذنا بتعريف واحد من هؤلاء العلماء لبقينا على إسلامنا عنده وحده، وكنّا من الكافرين بحسب تعريفات الآخرين." (تقرير لجنة منير، لاهور ١٩٥٤، ص ٣٢٣).

ويجدر بالقارئ.. عند اطلاعه على ملاحظة القاضي منير هذه أن يرجع بذاكرته إلى تأنيب النبي ﷺ لأسامة بن زيد (رضي الله عنهما)، بعد رجوعه من غزوة غالب بن عبد الله الكلبي، وكان قد قتل رجلًا منهم. وروى أسامة الحادث قائلًا: "أدركته أنا ورجل من الأنصار، فلما شهرنا عليه السلاح،

قال: أشهد أن لا إله إلا الله. فلم ننزع عنه حتى قتلناه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه خبره فقال: يا أسامة، من لك بلا إله إلا الله؟ قلت: يا رسول الله، إنّه إنما قالها تعوّذًا بها من القتل. قال: فمن لك بها يا أسامة؟ وما زال يرددها عليّ حتى وددت أنّ ما مضى من إسلامي لم يكن، وأني كنت أسلمت يومئذ، وأني لم أقتله، وقلت يا رسول الله، إني أعاهدك ألا أقتل رجلًا يقول لا إله إلا الله أبدًا. قال ﷺ : تقول بعدي يا أسامة! قلتُ: أقول بعدك." (سيرة ابن هشام).

لقد علم النبي ﷺ أنه على الرغم من اهتمامه بحياة المسلمين الناطقين بالشهادة فلم يزالوا يقتلون على يد الضالين.. وباسم الإسلام وفي رواية أن النبي ﷺ سأل أسامة: هلا شققت عن قلبه (مسند أحمد بن حنبل) ليعرف مدى صدقه في نطقه بالشهادة ومع ذلك فإنّ (العلماء) المتعطشين للسلطة والمتورطين بالسياسة لا يزالون يحرضون الناس على قتل إخوانهم المسلمين لأنهم يخالفونهم في الرأي قليلًا أو كثيرًا لو هناك اختلاف حقًّا كما لو أنهم قد شقوا عن قلوبهم فوجدوا إيمانهم باطلًا؟!

وفيما يتعلق بالارتداد، يستخدم القرآن كلمة (ارتد) والتي تدل على أنّه ليس من حق أحد وصف مسلم آخر بأنه (مرتد). يوضح الإمام الراغب الأصفهاني قائلًا: "كلمة ارتداد تعني عودة المرء من حيث جاء متتبعًا خطاه." وترتبط الكلمة بصفة خاصة بالرجوع عن الإسلام إلى الكفر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ (سورة محمد:٢٦) وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ (سورة المائدة:٥٥).

و(الارتداد) مصدر لازم، فعله (ارتدّ)، وليس له صورة متعدية. فالمرء بنفسه يرتد عن دينه أو يرتد إلى دين آخر، ولكن لا يمكن أن يُردّ. فهو عمل اختياري، لا دخل لعامل خارجي فيه. وهذا الجانب الاختياري الحر.. هو الذي يميز بين الارتداد وبين مفهوم (الرد) أو الطرد المسيحي المودودي كما تناولناه بالشرح في الفصل الأول، والذي يمثل عقوبة من سلطة خارجية كالكنيسة أو الدولة. إنّ الطرد من الدين بالطريقة المسيحية المودودية قتل أو بالأحرى اغتيال، أما الارتداد فهو كالانتحار.. يمكن أن تقتل إنسانًا، ولكنك لا تكون صادقًا إن اغتلته ثم قلت أنّه انتحر.

رد فعل متعد، يرد ردًا. قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ﴾ فهو مردود، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾. وارتدّ فعل لازم، يرتد ارتدادًا فهو مرتد. وبهذه الصيغة يكون الفعل صادرًا من الفاعل وحده، ولا ينسب إلى غيره.. فلا يكون مرتدًا ولم يرتدد إذا نسبه أحد أو حكم عليه بالارتداد. الارتداد عن الدين أو الرأي عملية عقلية قلبية، يملكها المرتد وحده، ولا يمكن أن يرد حقيقة إلا إذا شاء هو بنفسه أن يرتد.

نزلت سورة (الكافرون) في أوائل البعثة النبوية، وهي بيان مباشر لمسألة حرية الضمير. طلب القرآن الكريم من النبي ﷺ إبلاغ الكافرين بأنّه ليس ثمة نقطة التقاء بين منهجهم ومنهجه في الحياة ونظرًا لعدم اتفاقهم معه في المبادئ الأساسية للدين وفي التفاصيل أيضًا ولا يمكن التوفيق بينهما، فإذًا ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (سورة الكافرون:٧).

وأخبر النبي ﷺ مرات متعددة بأن لا يقلق بسبب رفض الكفار لرسالته، فهو ليس وكيلًا عليهم، يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهو الحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (سورة الأنعام:٦٧)، (راجع أيضًا سورة الزمر:٤٢ وسورة الشورى:٧ وسورة يونس:١٠٩ وسورة الإسراء:٥٥).

نزل هذا التصريح في مكة، عندما كان النبي ﷺ وأصحابه هم الذين يتعرضون للاضطهاد. وعندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة بقي الإعلان تمامًا كما هو دون أي تغيير.. مع أنّ النبي ﷺ أصبح قويًّا ذا شوكة. والحقيقة أنّ هذا الإعلان قد أكّده إعلان آخر.. فأول سورة مدنية، وهي سورة البقرة.. تناولت موضوع الحرية الدينية، وصدر فيها أوضح بيان بشأن هذه الحرية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٥٧).

هذا هو الإعلان الواثق الصادر من النبي ﷺ، الذي نظم أمته في مدينته حيث كانت له السلطة العليا. ومخافة أن يُساء فهم موضوع الجهاد.. بينت سورة البقرة للمسلمين أنّ البر الحقيقي هو العمل الصالح والإيمان الصادق. (سورة البقرة:١٦٩-٢٤٣) وذكرتهم بجلال الله في آية الكرسي (سورة البقرة:٢٥٦). وتلا ذلك مباشرة إعلان (لاإكراه في الدين).. فقد يحسب قرّاء القرآن الكريم أنّ الله تعالى يريد منهم نشر الإسلام بالقوة، لأنه أمرهم بقتال أعداء الأمة وبذل تضحيات خاصة في هذا السبيل، لذلك تخبر الآية المسلمين، وبعبارة لا ينقصها التأكيد، ألا يلجأوا إلى العنف باسم إدخال الناس في الإسلام.

ويمكن تقدير مدى أهمية هذه الآية من حديث رواه الترمذي عن النبي ﷺ يقول: "إنّ لكل شيء سنام، وسنام القرآن سورة البقرة. لا يدخل الشيطان بيتًا تقرأ فيه عشر آيات من هذه السورة." (جامع الترمذي). (يشير إلى الآيات الأربع الأولى من السورة، وآية الكرسي، وآيتين بعدها، ثمّ الآيات الثلاث الأخيرة).

وتكرر ذكر مبدأ (لا إكراه في الدين) بعد معركة بدر في سورة آل عِمران (٣:٢١)، ثمّ في سورة المائدة وهي آخر ما نزل من السور. أمّا وقد توطدت سلطة محمد ﷺ بالكامل.. ليس في المدينة وحدها، بل وفي مكة أيضًا، كان التأكيد على أنّ الدور الوحيد للنبي ﷺ هو تبليغ كلمة الله. وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (سورة المائدة:٩٣).. وأخيرًا قوله: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (سورة المائدة:١٠٠). فالعقيدة الدينية موضوع شخصي، والله وحده يعلم.. أمّا الحكومات والهيئات والروابط العالمية فلا تعلم عن ذلك شيئا.

وتفضي هذه الآية إلى موضوع المنافقين وتصف كلمة [المنافقين] فئة من سكان المدينة أظهروا إسلامهم، ولكن إيمانهم مشكوك فيه لأسباب متنوعة. وقد ورد ذكرهم مرات عديدة في القرآن، ولكن وصفوا بأنهم مرتدون في أربع مرات منها. أولها في سورة (محمد)، وهي سورة مدنية تصف بإيجاز أهداف الحرب في الإسلام، وتقول السورة بأنّه بينما يرحب المؤمنون بما ينزل من وحي يأمرهم بالقتال في سبيل الله.. فإنّ المنافقين يشعرون وكأنهم يُساقون

إلى الذبح. وهكذا يتميز المؤمنون الصادقون عن ضعفاء الإيمان والكاذبين. تقول السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ (سورة محمد:٢٦،٢٧). ولا تذكر هذه الآيات أية عقوبة لهؤلاء الناس.

ووردت الإشارة الثانية عن المنافقين في سورة (المنافقون) والتي نزلت في أواخر السنة السادسة بعد الهجرة. وتكشف السورة كفر المنافقين وخداعهم، وتدمغ إيمانهم بالكذب والغدر، وتؤنبهم الآيات علانية فتقول: ﴿...وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ* اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ* وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُو فاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ* وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ* سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (سورة المنافقون:٢-٧).

ووردت الإشارتان الأخيرتان عن المنافقين في واحدة من أواخر السور نزولًا، هي سورة التوبة، قال الله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (سورة التوبة:٦٦). وواضح أنّ الذين يعفى عنهم هم من المنافقين الذين تابوا

وعادوا مسلمين مخلصين. أما الذين يعاقبون فتحددهم السورة بعد ذلك وتقول بشأنهم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (سورة التوبة:٦٨).

وجاءت الإشارة الأخيرة في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (سورة التوبة:٧٤). عرف النبي ﷺ أن عبد الله بن أُبي بن سلول كان رأس المنافقين، ولكنّه لم يتّخذ ضدّه أي إجراء عقابي. ولـمّا هلك صلّى النبي ﷺ عليه صلاة الجنازة. وروي أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "لما توفي عبد الله بن أُبي، دُعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه. فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت في صدره، فقلتُ: يا رسول الله، أتصلي على عدو الله عبد الله بن أُبي بن سلول؟ القائل كذا يوم كذا والقائل كذا يوم كذا.. أعدد أيامه، ورسول الله ﷺ يتبسم حتى إذا أكثرت قال: يا عمر، أخّر عني، إني قد خيرتُ فاخترت، قد قيل لي: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَولا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾. فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر الله، لزدت. قال: ثمّ صلى الرسول ﷺ، ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه." (سيرة ابن هشام).

إن حرية التحول من الدين وإليه هي المحك الحقيقي لمبدأ (لا إكراه في الدين) لا يمكن أن تكون الحرية في اتجاه واحد.. اتجاه دخول الإسلام.. ثمّ

لا مخرج منه. هناك عشر إشارات في القرآن إلى الرجوع عن الإسلام إحداها مكية في سورة النحل والتسعة الباقية في سور مدنية.. ولم يرد قط في آية واحدة منها.. ولو تلميحًا.. أن الإعدام جزاء من يرجع عن الإسلام.

ومن أوضح التصريحات القرآنية عن الارتداد ما جاء في سورة البقرة حول موضوع تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة في مكة. يروي ابن اسحق: "ولـمّا صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة، أتى رسول الله ﷺ رفاعة بن قيس، وقردم بن عمر، وكعب بن الأشرف، ورافع بن أبي رافع، والحجاج بن عمر، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق وابنه كنانة، فقالوا: يا محمد، ما ولاك عن قبلتك التي كنتَ عليها.. وأنت تزعم أنّك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبع ونصدقك." وإنّما يريدون بذلك فتنته عن دينه فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾، أي ابتلاء واختبار، ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ (المرجع السابق). ولم يقرر القرآن عقوبة لهؤلاء المنقلبين (المرتدين). ولا يسجل لنا التاريخ أن أحدًا عوقب بعد واقعة تغيير القبلة.

نزلت سورة آل عمران المدنية بعد انتصار المسلمين يوم بدر في السنة الثانية من الهجرة، وفيها آيتان نزلتا في شأن ارتداد بعض اليهود في المدينة:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ* وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة آل عمران:٧٢-٧٣).

وذكر ابن إسحاق أسماء أولئك الذين دبروا هذه المؤامرة فقال: "قال عبد الله بن صيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف، بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة، ونكفر به عشية، حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع ويرجعون عن دينه." (المرجع السابق). ولم يعاقب أحد من هؤلاء اليهود الثلاثة.

وآية أخرى في سورة (النساء) تقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (النساء:١٣٨).

كيف يمكن للمرتد أن يتمتع بمهلة التردد بين الإيمان والكفر إذا كانت عقوبته القتل.. وليس عند المقتول فرصة ليؤمن ثم يرتد مرة أخرى!

السنة الشريفة هي أفعال النبي ﷺ ومواقفه بإلهام السماء، وهي المصدر الثاني للشريعة الإسلامية.. وليس في السنة النبوية عقاب للخروج من الإسلام وأسماء الأشخاص الذين أعدموا تحفظها لنا السيرة الكريمة والحديث الشريف، كما تحفظ لنا أسماء الذين ارتدوا. هناك أعرابي دخل الإسلام على يد النبي ﷺ وأصابته الحمى وهو في المدينة. فسأل النبي ﷺ أن يحلّه من بيعته، وكرر طلبه ثلاث مرات، وكان النبي ﷺ يرفض طلبه في كل مرة. وغادر الرجل المدينة دون أن يزعجه أحد. ولمّا سمع النبي ﷺ بخروجه قال: "المدينة كالكير تنفي خبثها." (البخاري)

ويروي ابن إسحاق أنّ النبي ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمّرهم أن يدخلوا مكة، ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم.. إلا إنه سمى نفر، أمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة وهم:

١. عبد الله بن سعد بن أبي سرح،

٢. ٣. ٤. عبد الله بن خطل من بني تيم بن غالب، وقينتاه اللتان كانتا تتغنيان بهجاء النبي ﷺ،

٥. الحويرث بن نقيد بن وهب بن قصي،

٦. مقيس بن حبابة

٧. سارة مولاة بعض بني عبد المطلب

٨. عكرمة بن أبي جهل

أما عبد الله بن سعد فكان واحدًا ممن يكتب للنبي ﷺ، فارتد مشركًا، ورجع إلى كفار مكة. ولكونه من كتبة الوحي بإملاء من النبي ﷺ، وموضع ثقته ﷺ.. ففي فراره هذا تشويش على صحة الوحي نفسه. ولمّا اطمأن الناس في مكة استأمن له عثمان بن عفان ﵁، أخوه في الرضاعة، فعفا عنه النبي ﷺ.. وما كان النبي ﷺ ليفعل ذلك أبدًا لو كان هناك حد في القرآن للارتداد. إنّ سياسة النبي ﷺ بصدد الشفاعة في حدود الله معروفة، وتبينها تمامًا حادثة المخزومية التي أدينت بالسرقة، وعندما حاول أن يتشفع لها أسامة بن زيد (رضي الله عنهما)، عنّفه النبي ﷺ قائلًا: "أتشفع في حد من حدود الله؟ فو الله، لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها."

أما ابن خطل، فقد بعثه النبي ﷺ لجمع الزكاة وبعث معه رجلًا من الأنصار يخدمه. فنزل منزلًا، وأمر الخادم أن يذبح تيسًا ويصنع له طعامًا. فنام الخادم واستيقظ ولم يصنع شيئا فعدا عليه ابن خطل وقتله. ثم ارتد مشركًا ورجع إلى مكة ونفّذ فيه حكم الإعدام سعيد بن حريص المخزومي وأبوبرزة الأسلمي لجريمة قتل الأنصاري المسلم.

أما المغنيتان فقد أعدمت إحداهما بسبب هجائها المثير للفتنة، وعفي عن الأخرى.

وكان الحويرث بن نقيد من بين جماعة الهبَّار بن الأسود بن المطلب، الذين أدركوا السيدة زينب بنت محمد ﷺ وهي تغادر مكة قاصدة المدينة فنخس الحويرث جملها فأوقعها على الأرض، وكانت حاملًا، فأجهضت، واضطرت للرجوع إلى مكة. وقد أرسل النبي ﷺ عددًا من الرجال، وأمرهم أن يقتلوا هبَّار بن الأسود والحويرث إذا وجدوهما ولكن الحويرث فرّ هاربًا.

وفي رواية أخرى أن العباس بن عبد المطلب حمل فاطمة وأم كلثوم ابنتي النبي ﷺمن مكة يريد بهما المدينة فنخس بهما الحويرث، فرمى بهما إلى الأرض. (المرجع السابق)

وأخيرًا قتله عليّ رضي الله عنه في مكة. (الزرقاني، شرح المواهب اللدنية).

أما مقيس بن حبابة، فقد جاء النبي ﷺ في المدينة وقال له: جئتك مسلمًا، وأريد دية أخي الذي قتل خطأ. فأمر النبي ﷺ أن يدفعوا له دية أخيه هشام. مكث مقيس مع النبيﷺ لفترة بعد أن تسلم دية ثم وجد فرصة فقتل الأنصاري قاتل أخيه، وفر إلى مكة كافرًا. فأُعدم مقيس هذا بسبب جريمة قتل الرجل بعد أن أخذ الدية.

وكانت سارة تؤذي النبي ﷺ في مكة، واستؤمن لها النبي فأمنها، ولم تقتل في زمن النبي ﷺ. وفرّ عكرمة بن أبي جهل إلى اليمن، وأسلمت زوجته أم حكيم، واستأمنت له النبي ﷺ فآمنه، وعاد إلى النبي وأسلم.

وهكذا لانجد.. ولاشاهدًا واحدًا.. على أنّ النبي ﷺ عاقب أحدًا لارتداده عن الإسلام.

أحدثت وفاة النبي ﷺ عام ١١ بعد الهجرة أزمة كبيرة في وجه الإدارة الإسلامية الحديثة. حدثت اضطرابات في الجزيرة العربية، وخرجت قبائل عديدة على حكومة المدينة ترفض أداء الزكاة. وعرفت هذه الحركة باسم (الرِدَّة). وكان الواجب الرئيسي على خليفة النبي ﷺ سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، أن يخمد هذا الاضطراب. وكان أول مهمة له غداة خلافته إنفاذ جيش بقيادة أسامة بن زيد بقيادة إلى حدود الشام تنفيذًا لأمر النبي ﷺ قبل وفاته. بعد أن خرج أسامة بالجيش انشقت معظم القبائل على المدينة، ولم يبق سوى مكة والمدينة وما حولهما على ولائهم للإدارة المركزية في المدينة وأجبرت القبائل المنشقة عمَال النبي ﷺ الذين عينهم قبل وفاته على ترك مراكزهم والعودة إلى المدينة. لقد كان تمردًا أو ثورة اكتمل ريشها.

عزم سيدنا أبوبكر على قتال المتمردين وأرسل إلى القبائل الموالية يدعوهم إلى معونته. وبينما كان أبوبكر في انتظار المدد أعد (خارجة بن حزم) هجومًا مفاجئًا على المسلمين بقيادة (عيينة بن حصن الفزاري) و(الأقرع بن حابس التميمي). وأخذ المسلمون بالمفاجأة وفروا، ولكنّهم استعادوا جأشهم، وكروا على (خارجة) ورجاله وهزموهم.

قبل موقعة (ذي القصة) هذه.. جاء المدينة وفد من قبائل العرب للتفاوض مع أبي بكر حول موضوع الزكاة، ولكنّ أبي بكر رضي الله عنه رفض التفاوض. لم يوافق عدد من السابقين الأولين من المهاجرين على قرار أبي

بكر بمحاربة مانعي الزكاة، لأنّ رغبة هذه القبائل في التفاوض دليل على أنّهم لم يرتدوا، وأنهّم لا يريدون قطع علاقتهم بالمدينة، ولكنّهم غير مستعدين لقبول سيطرة المدينة عليهم. إنها لم تكن مسألة إيمانهم بالله ورسوله، ولكنّها الزكاة. واعترض جماعة من الصحابة على قرار أبي بكر بحرب العصاة وروي أن سيدنا عمر قال لأبي بكر : بأي حق تقاتلهم وقد قال النبي ﷺ : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم." (كتاب الأم للإمام الشافعي)

جمع سيدنا أبوبكر المسلمين بعد مغادرة الوفد للمدينة وخطبهم قائلًا: لقد رأى الوفد قلة عددكم في المدينة، ولا تعرفون متى يأتونكم نهارًا أم ليلًا وهم على مرمى حجر من المدينة، ويريدون أن نقبل عرضهم ونتفق معهم، ولكننا أبيناهم فاستعدوا لهجومهم فإنهم فاعلون في غضون ثلاثة أيام. (ابن جرير الطبري، تاريخ الرسول والملوك)

سالت دماء غزيرة في حرب الرِدَّة، ولم يكن مفهومًا لدى المؤرخين للدولة الإسلامية من المتأخرين أنّه بعد وفاة النبي ﷺ كان لا بد من أن تقع حروب كثيرة على الأرض الغربية فعزوا هذه الحقيقة الواقعة إلى حركة دينية مضادة للإسلام أطلقوا عليها اسم (الرِدَّة) ولما فشل الفقهاء في أن يجدوا سندًا من القرآن أو من سنة النبي ﷺ لقتل المسلمين المتهمين بالكفر أو بالحرب ضد السلطات السياسية المسلمة.. تقبلوا ذلك الافتراض بدون ضجة زائدة.

يقول الإمام الشافعي في مناقشة لشرعية قتال أبي بكر المسلمين المتمردين: والرِدَّة هي الرجوع من دين سابق إلى الكفر ورفض تحمل

المسؤولية السابقة. (كتاب الأم للإمام الشافعي). فالارتداد ليس كافيًا وحده، بل لا بد من أن يتفاقم بادعاءات أخرى كخرق لاتفاق.

وأوضح هذا الموضوع ابن أبي الحديد، وهو عالم من مدرسة مختلفة فقال: "إنّ القبائل التي رفضت أداء الزكاة لم يكونوا مرتدين، إنّما أطلق عليهم الصحابة هذه التسمية على سبيل المجاز." (شرح نهج البلاغة لمحمد أبوالفضل إبراهيم).

وعند (ولهاوزن) كانت الرِدَّة خصامًا مع قيادة المدينة، وليس مع الإسلام نفسه. أرادت معظم القبائل أن تمضي في عبادة الله بدون أداء الزكاة. ويتفق (سيتاني) معه ويقول: "إنّ الرِدَّة لم تكن حركة للارتداد، وإنّما كانت حروبًا سياسية." ويتابعهما (بيكر) مقررًا:

"أعطى موت محمد المفاجئ دعمًا جديدًا للميول الطاردة عن المركز، وكانت سمات الحركة في جملتها خفية بالطبع، كما فرضت نفسها على ملاحظة المؤرخين.. عن المعاصرين لها. فلولا انفصالية الرِدَّة وما ترتب عليه من التزامات أثارت في حكومة المدينة تلك الطاقة التي دفعت بالجميع أمامها.. لغرقت بلاد العرب في الإقليمية.

لم تكن حرب الرِدَّة حربًا ضد، "الخروج عن الدين"، فلم يكن ثمة اعتراض على الإسلام، ولكن الاعتراض كان على "فرض الجزية" التي تؤدى إلى المدينة. فالحرب كانت تستهدف السيادة على جزيرة العرب.

ويبين (برنارد لويس) بوضوح تام أن وصف الأحداث بأنها ردة يعتبر تحريفًا لمغزاها الحقيقي بما أضفاه عليها المؤرخون المتأخرون من صبغة دينية. ويمضي قائلًا: " لم يكن رفض الاعتراف بخلافة أبي بكر في الواقع ارتداد من القبائل إلى

وثنيتهم السابقة، ولكنه إنهاء بسيط وتلقائي لعقد سياسي بسبب موت أحد الطرفين. والقبائل المجاورة للمدينة دخلوا الإسلام، وكانت مصالحهم وثيقة الصلة بالمدينة بحيث أنّه لم يدون لهم تاريخ منفصل. أما الباقون فقد قطع موت محمد روابطهم بالمدينة تلقائيًا، واستعادت الأطراف حرية العمل، ولم يشعروا أبدًا أنهم مرتبطون بانتخاب أبي بكر، فلم يكن لهم فيه يد. وتوقفوا على الفور عن علاقات الزكاة والمعاهدات." (مقالات الأسهري).

وكان على أبي بكر أن يعقد معاهدات جديدة ليستعيد بها سيطرة المدينة على البلاد.

قُتِل الخليفة علي بن أبي طالب ﵁ ٤٠ هج - ٦٦١ م، ولّى معه مفهوم الحاكم المسلم.. الذي يجمع في شخصه إمامة الدولة والدين. وبدأ عصر الملكية الأموي (٦٦١ إلى ٧٥٠ م). وكان معاوية بن أبي سفيان أول حاكم سياسي في الإسلام. لم يكن لهؤلاء الحكام تلك الإشراقة الدينية التي كانت للخلفاء الصالحين، وكانوا يعتبرون ملوكًا دنيويين تقريبًا. وجاء العلماء.. الحفظاء على الشريعة.. ليشغلوا مناصب تشبه من وجوه عديدة مناصب رجال الدين بعد دخول قسطنطين الكبير في النصرانية. كانوا كنظرائهم من رجال الدين في العصور الوسطى في أوروبا.. يلقون الاحترام لعلمهم وورعهم، كما كان تأييدهم مطلوبًا لإسباغ الشرعية على السلطان السياسي لحاكم مستبد أو غير شعبي. وعملوا أيضًا كقادة للمعارضة مؤثرين أن يكونوا من أهل الحظوة لدى السلطة السياسية بدلًا من أن يحصلوا عليها لأنفسهم.

والآن، أصبحوا يبررون الثورات السياسية أو الاجتماعية بشعارات دينية.

و كذلك وجدت الصراعات على السلطة السياسية فيما بين البيوتات الحاكمة قوالب تتصلب فيها داخل شقوق التعاليم الدينية.

الخوارج والشيعة حركتان رئيسيتان انشقتا عن الجماعة العامة بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﵁ عام ٦٤٤م، ونشأتا خلال الصراع على منصب الخلافة. كان الخوارج هم أول من قال بأن مرتكب الكبيرة ليس مسلمًا. وهم أيضًا أول من أعلن الجهاد ضد المسلمين الذين هم من وجهة نظرهم ليسوا مؤمنين حقًّا. كان هؤلاء الخوارج من حزب علي ﵁، ثم خرجوا عليه بسبب خلافهم معه على مسألة التحكيم التي قبل بها بينه وبين معاوية بهدف تسوية الخلافات الناشئة عن مقتل عثمان. قالوا: الحكم لله وحده وليس للمحاكم البشرية. كان الخوارج رواد مبدأ العقائد التعسفية، وكانوا مدققين بإزاء صفات المسلم وموقفه تجاه الإنسان، مسلمًا كان أو غير مسلم. كانت هذه الطائفة أول مذهب محدد يظهر في الإسلام، كما كانت الأولى أيضًا في رفض مبدأ النجاة بالإيمان.. إذ كانوا يرون أنّ مرتكب الكبيرة لم يعد مسلمًا، ولا يمكن أن يرجع للإيمان، بل يجب قتله وأسرته جميعًا. واعتبروا أنّ كل من ليس منهم خارج عن القانون وغير مسلم.

وكما رأينا سابقًا.. فإنّ النبي ﷺ عرف المنافقين في المدينة وكبيرهم عبد الله بن أبي، ومع ذلك لم يتخذ ضدّه أي إجراء عقابي.. أي أنه لم يصدر حكمًا على إيمان المسلم.

وإذًا، فقد تصادم فكر الخوارج مباشرة مع تعاليم القرآن وسنة النبي ﷺ. وكان إعلانهم (لا حكم إلا لله وحده) مخالفة تامة للسنة. عين النبي ﷺ سعد بن معاذ حكمًا ليحكم في مصير قبيلة بني قريظة اليهود، ونفذ فيهم حكمه. يعلّق الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم بخصوص حكم سعد هذا قائلًا: "كان مباحًا للمسلمين أن يلجأوا إلى التحكيم."

والواقع أنّ واجب جماعة المسلمين أن يصلحوا بين أي فريقين متحاربين من المسلمين. يقول القرآن: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (سورة الحجرات: ١١). فَقَذْف المسلمين بالكفر ثم عقابهم على ذلك، لأنّ بعض خصائصهم لا تتفق مع معيار مذهب ديني معين، لهي بدعة دخيلة على الإسلام.

لقد عرّف النبي ﷺ بنفسه المسلم بأنّه من يقر بتوحيد الله وبنبوة محمد. هذا هو التعريف الوحيد الذي يمكن أن يتميز به المسلم.

يناقش (برنارد لويس) موضوع التكفير ويقول:

"بل إنّ العصيان العلني لا يعني التكفير تلقائيًا. ففي عام ٩٢٣م رفض القاضي الكبير ابن بهال أن يدين المتمردين الكارماتينيين بالكفر، وبنى حكمه على أنّه استهلوا رسائلهم بالتوسل إلى الله وإلى النبي. ومن ثم هُم بحسب الظاهر مسلمون. ويصر الفقه الشافعي على أنّ الطائفي، وإن كان متمردًا، له حق المعاملة كمسلم، بمعنى أن تحترم أسرته وممتلكاته، وألاّ يتعمد إعدامه أو استرقاقه عندما يقع في الأسر."

وعلى أي حال، فالتكفير من اختراع الفقهاء، وكما رأينا كان التكفير حجة الخوارج لاتهام علي رضي الله عنه. ولـمّا تبنّى الفقهاء هذه البدعة الخارجية لم يعد باستطاعتهم الاتفاق على تعريف للمسلم.

إنّ محاولة البحث في ثلاثة عشر قرنًا من التاريخ الإسلامي لمعرفة عدد الذين قتلوا بسبب خروجهم عن الإسلام عمل لا طائل منه. كانت هناك محاولات فاشلة لقتل الميمونيين في القاهرة، وأمير يونس الماروني، وتعذيب رشيد الدين في تبريز، ولكن مثل هذه الأمثلة كانت نادرة للغاية. وفي الهند إبان حكم المغول حالة واحدة مسجلة، فقد دخل الإسلام راهب برتغالي، ثم ارتد إلى دينه الأول، فأعدم في (أورانج أباد). كان إعدامه لأسباب سياسية وليست دينية إذ كان الرجل محل شبهة قوية كجاسوس لصالح البرتغال مستترًا بإسلامه.

وأُعدم جعد بن درهم في الكوفة بأمر هشام بن عبد الملك عام ١٢٤ أو ١٢٥ هج بتهمة اعتقاده بفكر المعتزلة من خلق القرآن وحرية الإرادة.

وفي عام ١٢٧ هج اتهم الشاعر العراقي بشار بن برد بالزندقة، فضرب وأُلقي به في مستنقع في البطحاء.

وقتل الحسين بن منصور الحلاج عام ٣٠٩ هج بتهمة التجديف، لأنّه قال بالحلول (الاتحاد مع الله). وأعدم شهاب الدين يحيى السهروردي بأمر الملك الظاهر عام ٥٧٨ هج وكانت جريمته أنّه اعتبر كل ما هو حي أو يتحرك يتخذ وجوده على أنّه حقيقة بل وأسس دليله على رمز الضوء.

كان شهيد القرن السابع عشر هو محمد سعيد سرمد وُلد لأبوين يهوديين في كاشان. وكان قبل إسلامه حبرًا وشاعرًا عظيمًا في الفارسية، وكان أحديًا ينكر وجود المادة. أعدم في عصر أورانجزيب (١٦٥٨.. حكم ١٧٠٧م). ويقع مزاره مقابل المسجد الجامع في دلهي، ويجتذب مئات المسلمين لزيارته حيث يضعون الزهور على قبره، ويقرأون له الفاتحة.

وفي أفغانستان قتل أحمديان لأنهما قبلا دعوى مرزا غلام أحمد القادياني بأنّه الإمام المهدي والمسيح الموعود. أولهما صاحبزادة عبد اللطيف الذي قام بمراسم تتويج الأمير حبيب الله خان.. رجم حتى الموت عام ١٩٠٣م. والثاني مولوي نعمة الله عام ١٩٢٤م. وقد منحا الفرصة للتبرئ من دعاوى مرزا غلام أحمد ولكنهما أصرّا على الإباء.

وأُعدم محمد محمود طه في السودان عام ١٩٨٥م، لأنّه كان يعتقد بأنّ ما نزل من القرآن في المدينة لم يعد ساريًا في هذا العصر.

ومما له مغزى كبير أنّ السلطان العثماني.. وهو عاهل إمبراطورية دينية و(خليفة كل المسلمين)، لم يأمر بإعدام بهاء الله (١٨١٧-١٨٩٢م) بعد ارتداده. لقد أعلن بهاء الله أنّه القائم المنتظر، الذي أخبر عنه الباب، وأسس دين البهائية الذي يُخالف دين الإسلام تمامًا. وزعم أن ظهور البهاء نسخ القرآن وتعاليم محمّد ﷺ. سُجن بهاء الله في سجن عكا بالقرب من حيفا بفلسطين. ولكن عندما أعلن ساباتي زيفي (١٦٢٧-١٦٧٦م) اليهودي الصوفي، الذي ادّعى بأنّه المسيح عام ١٦٤٨م، أصدر شيخ الإسلام حكمًا بإعدامه فقُبض عليه، وتراجع عن دعواه لينجو من عقوبة

الموت، ودخل الإسلام. ولكن بهاء الله ادّعى أنّه تجلٍ جديد للرب، وترك الإسلام، ومع ذلك لم يُعدم رغم ردّته لأنّه لم يكن يمثل خطرًا على القانون والنظام في الإمبراطورية العثمانية.

وكما رأينا فإنّ مفهوم الرِدَّة مخالف للإسلام ولم تُشَرّع عقوبة دنيوية لمن يخرج عن الإسلام. ولكن العلماء الذين جاؤوا إلى محكمة التحقيق المشكلة بقانون بنجاب، مادة ٢ لعام ١٩٥٤ للتحقيق في فتن عام ١٩٥٣.. أكّدوا أنّ عقوبة الارتداد في الإسلام هي الموت. وضمت قائمة هؤلاء العلماء كلًّا من:

مولانا أبوالحسنات سيد محمد أحمد القادري رئيس جمعية علماء باكستان، بنجاب.

مولانا أحمد علي، رئيس جمعية علماء الإسلام، باكستان الغربية.

مولانا أبوالأعلى المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية المودودية، وأميرها السابق، باكستان.

مفتي محمد إدريس، مدير الجامعة الأشرفية، لاهور، وعضو جمعية علماء باكستان.

مولانا داوود الغرنوي، رئيس جماعة أهل الحديث، باكستان.

مولانا عبد الحليم القاسمي، جمعية علماء الإسلام، بنجاب.

السيد إبراهيم علي الجشتي.

وقد علقت محكمة التحقيق على تأكيدهم هذا بقولها: "بناء على هذا المذهب.. يجب إعدام شودري ظفر الله خان إذا لم يكن قد ورث

معتقداته الحالية وكان قد اختار بإرادته الحرة أن يكون أحمديًّا ولا بد أن يلقى نفس المصير الديوبنديون والوهابيون (بما فيهم مولانا محمد شفيع الديوبندي عضو مجلس تعليم الإسلام الملحق بالمجلس الدستوري لباكستان ومولانا داوود الغرنوي).. لو وصل إلى رئاسة الدولة الإسلامية أي واحد من العلماء المتربعين على كل ورقة من شجرة الفتوى الجميلة ".[EX.D.E14]

ولو كان مولانا محمد شفيع الديوبندي رئيسًا للدولة لاستُبعد من الإسلام أولئك الذين اتهموا الديوبانديين بالكفر، ولأنفذ فيهم حكم الإعدام إذا انطبق عليهم تعريف المرتد، أي لو أنّهم كانوا غيروا عقيدتهم ولم يرثوها.

وتشككت المحكمة في حقيقة فتوى الديوبانديين [EX.D.E13]، القائلة بأنّ الشيعة الإثنى عشرية كفار ومرتدّون. ولكن مولانا محمد شفيع بحث الموضوع من ديوباند، وتسلم من سجلات المعهد نسخة الفتوى ممهورة بتوقيع كل المعلمين في دار العلوم، بما فيهم مولانا محمد شفيع نفسه. وتقول السجلات المذكورة أنّ أولئك الذين لا يعتقدون في صحابية حضرة الصديق الأكبر، والذين يقذفون حضرة عائشة الصديقة، والذين اقترفوا جريمة تحريف القرآن.. كافرون.

ويشارك في هذا الرأي السيد إبراهيم علي الجشتي الذي يعرف هذا الموضوع ودرسه، ويحسب الشيعة من الكفار لأنهم يعتقدون أنّ حضرة علي يشارك النبي ﷺ في نبوته. ورفض السيد الجشتي الردّ على سؤال يقول: هل

السني الذي يغير آراءه ويوافق على عقيدة الشيعة يعد مرتدًا مستحقًّا للقتل؟ وعند الشيعة، كل (أهل السنة) كفار، وكذلك (أهل القرآن) (جماعة لا تثق بالحديث ولا تأخذ به) كفار. وبالمثل كل المفكرين المستقلين كفار. والنتيجة النهائية أنّه لا الشيعة، ولا أهل السنة، ولا الديوبانديون، ولا أهل الحديث، ولا البريلويون مسلمون.. وإذا ما قبضت على دفة الحكم جماعة من هؤلاء الذين يكفرون غيرهم فإنّ عقوبة الإعدام تنتظر كل من يتحول من فكر إلى آخر مخالف.

ولا يحتاج الأمر إلى كثير من التصور للحكم على تبعات هذه التعاليم إذا تذكرنا أنه لم يتفق عالمان إثنان أمامنا على تعريف صحيح للمسلم. وفي الحقيقة لو أخذ بتعريفاتهم إجمالًا.. فإن الأسس التي يُتهم بها المرء بالكفر تصبح كثيرة كثرة تفوق الحصر.

الفصل السابع

عقوبة الارتداد

في الفصول السابقة أوردنا من القرآن الكريم، ومن التاريخ الإسلامي، مراجع عديدة تكشف عن زيف القول بأن الإسلام يشرع أي عقوبة جسدية على من يخرجون من الإسلام كدين لهم. وفحصنا بالتفصيل معظم الحجج الشائعة التي يسوقها المنادون بقتل المرتد، ونخص منها خبر عكرمة وواقعات مانعي الزكاة في زمن سيدنا أبي بكر. ونبحث في هذا الفصل بعضًا من الحجج الأخرى.

من الصعب أن نعين هل نشأ مفهوم الجبر في الإسلام على أرض الإسلام، أم أنّه وليد خيال المستشرقين ثم انتقل بعد ذلك إلى حضن الإسلام. بعد دراستي لهذا الأمر في ضوء التاريخ الإسلامي.. أجدني بصدق أعتقد بأنّ الفكرة أخذت جذورها الأولى من العالم الإسلامي نفسه، وإنّه من الخطأ إلقاء اللوم على المستشرقين. إنّها نُقلت عن المسلمين قبل أن يولد أي مستشرق، ويبدو أنّ الفكرة قد عُرفت في عصور الإسلام الوسطى، ونشأت في أواخر عصر بني أُمية، وازدهرت في عهد العباسيين

وازدادت قوّة، لأنّ الخلفاء العباسيين أرادوا استخدام القوة، ليس ضد أعداء الإسلام فحسب، وإنّما ضد رعاياهم المسلمين أيضًا، وطالما استفتوا مَن تحت أيديهم مِن العلماء ليرخصوا لهم بذلك. وكانت تلك الرخص هي الأساس الذي اعتمدت عليه الحكومات المسلمة.

وإذًا فقد نشأ مفهوم الرِدَّة بعد عصر الخلافة الراشدة، نتيجة لمسلك وسياسات الحكومات المسلمة في بغداد. وإذا نظرنا من الخارج، فإنّ الدارسين الغربيين اعتقدوا أنّ ذلك من تعاليم الإسلام، والواقع أنّها لم تكن كذلك أبدًا، إنما كانت منهج بعض الحكومات المسلمة.

وينبغي التذكر أنّ الفكرة ولدت في زمن كان استخدام القوة لفرض النفوذ أو الفكر سائدًا في جميع أرجاء الدنيا بلا استثناء.

ومن الجلي إذًا، أنّ الزعم القائل بأنّ الإسلام يؤيّد استعمال القوة لنشر فكره.. لم ينبع من دراسة تعاليم الإسلام، وأنّما من دراسة سلوك بعض الحكومات المسلمة. أمّا ونحن الآن في زمن تتوافر فيه كل مراجع التراث والأعراف الإسلامية، وقد تُرجم القرآن إلى لغات كثيرة، وأمكن لعلماء الغرب التوصل المباشر لأصول التعاليم الإسلامية.. فلا مبرر لهم لكي يصروا على التمسك بهذا الزعم، بل عليهم أن يتوجهوا إلى الأصول ويدرسوا التعاليم القرآنية والحديث وسنة النبي ﷺ بأنفسهم.

وهذا العمل من جانبنا، محاولة لبحث الموضوع بجملته، ليس في غبشة مسلك المسلمين في عهد معين، وأنّما في نور التعاليم الأساسية للقرآن الكريم، وبيان تلك التعاليم باستعراض كلمات النبي ﷺ ومسلكه وفعله.

إنّ الاتجاه للحكم على التعاليم بسلوك أتباعها كثيرًا ما ضلل الناس بعيدًا عن التعاليم الأصلية. ومن الملاحظ في كل الدنيا أنّ الديانات كلها تفقد سلطانها وتأثيرها على سلوك معتنقيها بعد فترة من الزمن. ولبيان ذلك، ادرس سلوك البوذيين اليوم وفي الحقب الماضية، وادرس سلوك الحكومات الهندوسية، وهلمّ جرًا، تجد غالبًا أنّه لا توجد علاقة ما بينها وبين التعاليم الأصلية، وعلى وجه الخصوص ينبغي عدم الخلط بين السياسة وبين الدين، وألا يُعتبر التصرف السياسي لأمة مرآة تعكس تعاليم دينها الذي يُفترض أن تتبعها.

وبحثنا في حجج المؤيدين لعقوبة القتل في حق المرتد يهدف إلى ابطالها والوقوف ضدها.

تعريف المرتد

يقول القرآن الكريم:

﴿... وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُو كافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة:٢١٨).

ويعني هذا أنّ من يخشى السيف أو يخاف أذى العقاب، ويقرر ترك الإسلام فله الحق أساسًا في أن يفعل ذلك، ولكن ليس لأحد آخر الحق في تسميته مرتدًا. إنّ حق إعلان الارتداد يستقر في يد المرتد وحده. وليس هناك من تعليم في القرآن الكريم يُعطي هذا الحق للآخرين. فالمرء حر في

أن يهجر دينه، ولكن ليس له حق في أن يفرض على غيره الارتداد. فوفقًا لتعاليم الإسلام، لا يمكن لعلماء الدين، ولا المشتغلين بالدين، ولا لأي فرد متعصب، أو حكومة متشددة.. ليس لهم جميعًا حق في أن يصنعوا مرتدًا. كما أنّ القرآن الكريم يُعلن:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ (سورة محمد:٢٦).

آيات أخرى بشأن الارتداد

يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة المائدة:٥٥).

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة النحل:١٠٧).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (سورة النساء:١٣٨).

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْقُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (سورة آل عمران:١٤٥).

مهما جمح بنا الخيال.. لا نستطيع أن نستنتج من الآيات القرآنية السابقة أي أثر لعقوبة مادية دنيوية.

سورة التوبة

في محاولة مستميتة للعثور على آية واحدة من القرآن الكريم تكون سندًا لعقوبة قتل المرتد، ربما يتلمس بعضهم الملاذ في الآيتين ١٢، ١٣ من سورة التوبة. وفيما يلي نتلو الآيات من ٣ إلى ١٤ من هذه السورة.. وهي تتحدث عن نفسها وتتحدى كل محاولة لفهمها بطريقة مخالفة:

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُو خيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ* فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ* كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ*كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ

وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ* اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ* فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ* وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ* أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة التوبة:٣-١٤).

فالذين يستخلصون من الآيتين ١٢، ١٣ عقوبة الموت للارتداد لا يستطيعون تفسير ما يترتب على ذلك من تعارض مع الآيات الأخرى. فالآيات تنتمي إلى ما بعد فترة الهجرة من مكة إلى المدينة (ارجع إلى الآية الثالثة) عندما بدأت قريش في اعتداءاتها للقضاء على الإسلام بالقوة. وعلى المنادين بعقوبة الموت جزاء الارتداد.. أن يتذكروا بأنّ هذه الآيات تتحدث عن الوثنيين الذين نقضوا عهودهم وسخروا من الدين، ولم تُشر إلى من يخرج عن دينه. فالذين نقضوا عهودهم بعد توكيدها، والذين عادوا إلى إبداء العداوة لدينكم وبادروا إلى أعمال العدوان.. لكم الإذن بقتالهم مقصور على قادتهم (أئمة الكُفر) الذين لا قيمة لعهودهم الباطلة. والإذن بالقتال بغرض وقفهم عن الدخول في أعمال عدوانية ضدكم. هذا هو المعنى الصحيح لتلك الآيات التي أساء تفسيرها دعاة القتل، ليس بها أدنى

إشارة إلى من يرتدون عن دينهم لأنهم أُكرهوا على الإسلام. وقد تناول القرآن هؤلاء القوم أنفسهم في موضع آخر فقال:

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ* لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة الممتحنة: ٨، ١٠).

الكفر المؤقت

وتروي آية أخرى من القرآن الكريم كيد بعض أعداء الإسلام: ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (سورة آل عِمران:٧٣).

أهل الكتاب المشار إليهم هنا في الآية هم يهود المدينة. اتخذوا (تكتيكهم) هذا لبث الشك في نفوس المسلمين عسى أن يضللوهم ويوقعوهم في هجر الإسلام. كيف كان من الممكن لليهود أن ينفذوا هذه الخطة إذا كان الموت عقوبة الارتداد؟ لو أنّ واحدًا أعدم لارتكاب هذه الجريمة، كما يزعم دعاة القتل، لكان في ذلك رادع لغيره حتى لا ينهجوا نهجه.

ويلح مؤيدو الإعدام على أن هذه الآية تشير إلى فلسفة يهودية لم تجد طريقها إلى التنفيذ أبدًا. حتى ولو كانت مجرد فلسفة، فإنّ الآية تبقى، مع

ذلك، برهانًا حاسمًا على عدم وجود عقوبة دنيوية للارتداد، لأنّ العقوبة لو كانت مقررة ما فكر اليهود في هذه الفكرة. ومن الخطأ أيضًا القول بأنها فكرة نظرية.. لأنّ كتب الحديث تذكر أنّ اثنى عشر كاهنًا يهوديًّا من خيبر وعرينة طبقوها. (تفسير البحر المحيط).

وتتفق كل التفاسير على أنّ هذه السورة نزلت فيما بين فتح مكة ووفاة النبي ﷺ، وهذا إثبات تام على أنّ اليهود اتبعوا هذه الخطة بعد أن توطد الإسلام في جزيرة العرب. فكيف يمكن لليهود أن يلجأوا إلى مثل هذه الخطة الانتحارية الجنونية.. إذا كان القتل هو الجزاء المشروع للارتداد؟ وكيف يشجعون المسلمين على التمسك بدينهم أثناء النهار ثم يكفرون بالإسلام في آخره.. وهم يعلمون أن القتل عقاب من يغير دينه؟

الأحاديث النبوية

يجرد مؤيدو عقوبة إعدام المرتد معنى الأحاديث النبوية من كل تناسب. فالأحاديث لا تؤيد نظريتهم، بل على العكس، إنها تبين بوضوح أنّه ليس ثمة عقوبة للارتداد في هذه الحياة الدنيا. ومع ذلك، واستكمالًا للموضوع، ننظر في تلك الأحاديث التي غالبًا ما يرددها دعاة الإعدام للمرتد.

(أ) روى أبوقلابة عن أنس أن النبي ﷺ أمر قوم عكل أو عرينة أن يذهبوا إلى مرعى نوقه خارج المدينة ويقيموا فيها. فقتلوا حارسها وساقوها معهم وهربوا. هؤلاء اللصوص القتلة مع أنهم حقًّا قد ارتدوا، لكنهم عوقبوا ليس بسبب الارتداد، وإنما لاغتيالهم حارس الإبل.

(ب) لا شك أن ابن خطل الذي كان بين الأربعة الذين أعدموا بعد فتح مكة كان مرتدًا.. ولكنه أيضًا قاتل غادر، اغتال رفيقه في السفر. وواضح أن إعدامه كان القصاص العادل لجريمته هذه.

(ج) وفي واقعة أخرى، قتل مقيس بن حبابة رجلًا من الأنصار ثأرًا لأخيه هشام.

وهكذا في كل واحدة من هذه الواقعات كان المعدوم مجرمًا قاتلًا. لقد ارتدوا عن الإسلام فعلًا، ولكن كيف نغمض العين عن جرائم القتل التي ارتكبوها، وننسب إعدامهم إلى ارتدادهم؟

(د) مؤيدو الإعدام للمرتد يعتمدون كثيرًا على الحديث المتعلق بإعدام المرأة بسب ارتدادها. وأقل ما يُقال عن هذا الحديث بأنه لا يُعتمد عليه لأن حقيقة الأمر، أن النبي ﷺ لم يأمر قط بإعدام امرأة بسبب كفرها. جاء في كتاب الفقه المعروف (الهداية) ما يلي:

لقد حرم النبي ﷺ قتل النساء المرتدات، لأنّ مبدأ تنظيم العقوبات هو أنّه في مثل تلك الحالات يترك العقاب إلى الآخرة. ولأنّ العقاب المقرر في هذه الحياة يتعارض مع الهدف من الارتداد.. لأنها تكون عندئذ محاسبة على أمر يخص الله وحده. ولكن يمكن توقيعها فقط لمنع الشخص المسؤول من المضي في عدوانه (خلال الحروب مثلًا). ولما كان النساء بطبيعتهن غير قادرات على القتال، فإنّ المرأة المرتدة لا يمكن قتلها في أي حال.

ومن المستغرب أنّ عالـمًا مثل المودودي، والمفروض أنّه يعرف تمامًا مدى ضعف هذه الأحاديث، نجده لا يزال يتمسك بأحاديث ضعيفة رفضها العلماء المسلمون البارزون.

(هـ) وواقعة عبد الله بن سعد ذكرناها في فصل سابق. ولو كان هناك أية عقوبة في القرآن الكريم على الرِدَّة، فكيف نوفق بين تعاليم الرسول ﷺ.. القاضية بأن ليس هناك أحد فوق الشريعة، وبين تمسكه الصارم بشريعة الله؟. إذا كان الموت عقوبة المرتد فكيف يخالف النبي ﷺ أوامر الله تعالى؟

الصحابة

رأينا كيف أنّ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة لا تقدم أي تأييد للقائلين بإعدام المرتد، ولكن مؤيدي الإعدام لا تزال في جعبتهم حيل أخرى. ولزامٌ علينا أن نفحص حججهم المتبقية بالتفصيل. تعتمد تلك الحجج على الرأي الشخصي لبعض صحابة النبي ﷺ، وليس على حكمه بنفسه. وليكن معلومًا منذ البداية أنّ رأي الصحابة وملاحظاتهم ليست إلا على سبيل التفسير، ولا تقف ندًا لتعاليم الرسول ﷺ. وهي على أحسن الفروض وجهة نظر.

(ا) لقد تناولنا موضوع الرِدَّة الواسعة المتعلقة بالزكاة على صفحات سابقة.. بدأت قبيلتا عبس وذبيان أعمال العدوان بالهجوم على المدينة، وحاربهم سيدنا أبوبكر رضي الله عنه قبل أن يعود أسامة مع جيش المسلمين من الشام. فكان المرتدون هم البادئون بالعدوان. ولم يقتصر الأمر على رفض أداء الزكاة، ولكنهم رفعوا السيف على المسلمين. وهكذا تمردوا على الحكومة الإسلامية، وقتلوا من كان بينهم من المسلمين بحرقهم أحياء، ومثلوا بأجساد القتلى.(الطبري)

إنّ القائلين بقتل المرتد، بناء على هذه الواقعة، إما أنهم يجهلون كل تلك الحقائق، أو أنّهم يريدون تضليل الناس عمدًا لتهوين جريمة قتل المسلمين الأبرياء على يد الظالمين.

(ب) ثمّ يتساءل المؤيدون لقتل المرتد قائلين: إذا لم يكن عقاب المرتد قتله فلماذا لم يُترك مسيلمة الكذاب وشأنه؟ الواقع أن مسيلمة كان طامحًا إلى السلطة السياسية. فقد رافق وفد بني حنيفة إلى النبي ﷺ، وأسلم مشترطًا أن يكون خليفته من بعده. فأجابه النبي ﷺ أن لو سألتني هذا العسيب (سعف النخل) ما أعطيتكه. ولما عاد مسيلمة ادعى أن له نصف أحياء العرب، وأرسل إلى النبي ﷺ كتابًا زعم فيه: إني قد أشركت معك في الأمر، وإنّ لنا نصف الأرض. فرد عليه النبي ﷺ بالآية القرآنية: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٩). وبعد أن ادعى مسيلمة بالنبوة قَبَض على حبيب بن زيد الصحابي، وقطع أوصاله طرفًا طرفًا، ثم أحرق بقاياه. (تاريخ الطبري).

يتجاهل أنصار قتل المرتد هذه الجريمة الشنعاء، ويزعمون أن الارتداد كان جريمته الوحيدة. لو أنّه لم يرتكب جريمة القتل، فهل كان سيقتل على عقوبة الارتداد وحدها؟ ألم يكن ليعاقب على القتل والتمثيل بالقتيل والفساد الذي أحدثه في الأرض؟ لم ترد أبدًا أية إشارة تدل على أنّ النبي ﷺ حكم بموت مسيلمة، أو حث أحدًا من صحابته على قتله عندما سمع عن رفضه لنبوته.

ولما عجز مولانا المودودي أن يجد دليلًا على أنّ النبي ﷺ أدان مسيلمة.. ذهب يلتمس مخرجًا له في رغبة أبداها النبي ﷺ في ساعته الأخيرة عن

الخلاص من مسيلمة. ولو كان هناك مثل هذه الرغبة ما تجاهلها أبوبكر خليفته الأوّل، ولأرسل حملة عسكرية تنفيذًا لهذه الرغبة النبوية. لماذا تلكأ أبوبكر رضي الله عنه حتى بدأ مسيلمة اعتداءاته، وجاهر بالتمرد ضد المسلمين؟ لقد حشد مسيلمة أربعين ألف مقاتل من بني حنيفة وحدها لملاقاة خالد بن الوليد، وابتدأ بالعدوان، وتحرك بقواته نحو المدينة. وعندئذ فقط أمر سيدنا أبوبكر بالمسير إليه لقمع تمرده وعقابه على جريمة قتله المنكرة لحبيب بن زيد. (تاريخ الخميس، ج٢).

(ج) مدعٍ آخر للنبوة، هو طليحة الأسدي.. لم يكن مجرد مدع كذاب، بل إنه قتل عكاشة بن محصن وثابت بن الأكرم الأنصاري. وقبل أن يقاتله خالد بن الوليد بعث إلى طليحة رسولًا للسلام وتجنب سفك الدماء. ويغمض دعاة قتل المرتد عيونهم عن أنّه لو كان القتل هو عقاب المرتد حقًّا ما كان هناك معنى لأن يبعث خالد إلى طليحة ليمنحه فرصة العفو. (ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن الأثير، أسد الغابة).

(د) حالة مشابهة مع الأسود العنسي الذي رفع لواء العصيان مع ردته، فقتل الوالي المسلم على اليمن. وعندما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خروجه أرسل كتابًا إلى معاذ بن جبل والمسلمين لمقاومة الأسود العنسي. فقُتل في مناوشة مع المسلمين، ووصلت أخبار مقتله بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بيوم واحد. (ابن الأثير، الكامل في التاريخ. ج٢).

(هـ) وبالمثل ارتد لقيط بن مالك الأزدي وادعى النبوة، ثم طرد جعفرًا وعبادًا اللذين كانا عاملين للنبي صلى الله عليه وسلم على عُمان. (الطبري، ج٤).

وكان شأنه في ادّعائه للنبوة كغيره.. لا علاقة له بالدين.. وإنما كان لكل منهم هدف سياسي يتوق لتحقيقه. ويطلب السيادة السياسية عن طريق التمرد العلني على الدولة الإسلامية التي يعيش في ظلها. ولذلك فمسألة الارتداد ليست واردة هنا. دعنا نفترض للحظة واحدة أن هؤلاء القوم لم يتخلوا عن إسلامهم، ولكنهم تمردوا على الحكومة الإسلامية وحسب.. أما كان على هذه الحكومة أن تتخذ الخطوة الحازمة لقمع التمرد.. الذي هو جريمة يترتب عليها الفساد والفوضى في الأرض، وشرع لها الإسلام عقوبة الإعدام؟ فالعقاب لم يكن أبدًا بسبب الرِدَّة.

(و) ويستشهد مريدو قتل المرتد بحادثة (أم قرفة)، المرأة التي ارتدت في زمن سيدنا أبي بكر وكان لها ثلاثون ولدًا، كانت تحضهم على قتال المسلمين، فدفعت ثمن خيانتها وتآمرها وجريمتها المضاعفة.. وليس ثمن ارتدادها. (المبسوط، ج١٠)

(ز) كثيرًا ما يُذكر قتال الإمام علي رضي الله عنه للخوارج.. لقد أفسد الخوارج في الأرض أيما إفساد، فقتلوا رجالًا ونساء من المسلمين، وقتلوا عامل علي وجاريته ورسول علي. (فتح الباري، ج١٢)

(ح) وتجدر الإشارة إلى تعيين معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري واليين على شطري اليمن.. وعندما أوشكا على السفر أوصاهما النبي ﷺ قائلًا: "يسّرا ولا تعسّرا وبشرّا ولا تنفّرا." جاء معاذ ذات يوم للقاء أبي موسى الأشعري، وشاهد رجلًا هناك مقيدًا بحبل، فاستفسر معاذ عن أمره. فقيل له هذا رجل من اليهود أسلم ثم ارتد، وأنهم عبثًا يحاولون معه منذ شهرين

أو ثلاثة ليرجع مسلمًا. فأصر معاذ ألا ينزل عن دابته حتى يقتل الرجل، وقال هذا حكم الله ورسوله. هذه الملاحظة الأخيرة تعبر عن الرأي الشخصي لمعاذ، ومثل هذه الآراء لا تعتبر حجة شرعية ما لم تساندها الدلائل التي تؤيدها. وسنفصِّل هذا المبدأ بعد قليل. دعنا الآن نختبر صحة هذا الحديث.

فأولًا ملاحظة معاذ تتعارض مع وصية النبي ﷺ الذي طلب منه أن يخفف عن الناس أمورهم وألا ينفرهم بعيدًا. فإذا جعلنا اعتمادنا على حديث من دون أن نتحرى عن فهم معاذ للإسلام.. في مسألة جوهرية تتعلق بحقوق الإنسان.. فذلك سخف ومجافاة للعقل. وهناك شك كبير يحوط بهذا الحديث وسنده وأهليته. وإذا ما كان هناك شك كهذا، فينبذ الحديث على الفور. وينبغي ألا ننسى أنّ هذه الأحاديث جمعت بعد ثلاثة أو أربعة قرون من بداية الإسلام، ولعامل الزمن أثره في احتمال خطأ الذاكرة. فطبقًا لإحدى الروايات كان قتل اليهودي بأمر من معاذ، وفي رواية أخرى أنّ معاذ هو الذي قتله بيده. وعند وقوع مثل هذه الاختلافات الأساسية في واقعة جوهرية، كيف يمكن للمرء الاعتماد على مثل هذه الأحاديث؟ قد ينسى الناس ما قاله شخص ما، ولكنهم إذا كانوا شهود عيان فلا شك أنّهم يذكرون تمامًا ما حدث بشأن المرتد المذكور.

(خ) ثم نلتفت إلى حديث نال اهتمامًا كبيرًا لأن دعاة قتل المرتد يؤكدون ويعتمدون عليه. وقد أرجأناه عمدًا إلى نهاية هذا الفصل حتى ينال حظه العادل دون تدخل في مجرى الموضوع. وقبل أن نبحثه بالتفصيل، من

المناسب ذكر كلمة حول تطبيق بعض المبادئ المتفق عليها بين العلماء الإسلاميين خلال مختلف العصور. وتساعد هذه المبادئ على حل التناقضات التي قد تبدو بين آيات القرآن الكريم وبين الحديث من ناحية، وبين الأحاديث بعضها البعض من ناحية أخرى.

أولًا: كلام الله فوق كل كلام.

ثانيًا: يأتي بعده التطبيق الفعلي للنبي ﷺ، أي السنة النبوية.

ثالثًا: ثم بعد ذلك الحديث، وهو الأقوال المروية عن النبي ﷺ.

وبصدد الحديث يُراعى ما يلي:

١. إذا ما ثبت بأنّ الكلمة من النبي ﷺ بلا أي ريب.. فهي الكلام الذي وضعه الله تعالى في فم النبي ﷺ. فإذا لم يكن ثمة تعارض ظاهر بين كلام النبي ﷺ وبين القرآن.. يكون الحديث عندئذ حجة مقبولة.

٢. وليس هناك من يماري في أنّه إذا تعارض قول منسوب إلى النبي ﷺ مع تعاليم القرآن الواضحة..رُدَّ هذا الحديث على أنّه موضوع، وليس من قول النبي ﷺ.

٣. إذا كان الحديث لا يتعارض صراحة مع تعاليم القرآن، وكان هناك مجال لتأويل الحديث.. فالتصرف الصحيح عندئذ هو الاجتهاد في تأويله حتى يزول التعارض ويتفق النصان.

٤. عند محاولة التوفيق بين حديث منسوب إلى النبي ﷺ وبين القرآن يجب مراعاة الالتزام بتعاليم القرآن الكريم، لأنّها الأصل الثابت الذي لا يؤوّل ليتفق مع غيره. ويكون المطلوب الصحيح هو البحث عن تفسير

للحديث يتوافق مع القرآن. وإذًا في جميع الحالات يوضع الحديث في ميزان القرآن ويوزن به.

٥. إذا لم يكن هناك تعارض بين القرآن الكريم وبين الحديث، فإنّ صحة نسبة الحديث إلى النبي ﷺ تتحدد عندئذ بناء على ثقة الرواة وسلامة التسلسل.

٦. يجب مقارنة الحديث السابق مع الأحاديث الصحيحة المقبولة الأخرى تحرزًا من أن يكون بينه وبينها تعارض ما.

٧. وأخيرًا، للتأكد من صحة حديث ينبغي دراسة الدليل الداخلي في الحديث دراسة ناقدة فاحصة، فإذا تبين أنّ في الحديث ما يخالف صورة نبي الإسلام ﷺ كما رسمتها سنّته الصحيحة وطريقته طوال حياته، أو إذا كان معارضًا لمبادئ المنطق السليم والعقل السوي، رُفِض هذا الحديث وحكم ببطلان صدوره عن النبي ﷺ.

وعلى ضوء القواعد السابقة، دعنا نفحص الحديث المذكور:

عن عكرمة قال: "أُتِيَ عليٌّ رضي الله عنه بزنادقة فأحرقهم. فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله ﷺ: لا تعذبوا بعذاب الله، ولقَتلتهم لقول رسول الله ﷺ: مَن بدّل دينه فاقتلوه." [صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين]

وروي نحو هذا الحديث في الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه أيضا.

تناقض الحديث مع القرآن الكريم

ليس بوسع منصف عاقل أن يوفق بين الحديث المذكور وبين الآيات التالية من القرآن الكريم:

سورة البقرة: ٥٧، ١٠٠، ١٠٩، ٢١٧، ٢٥٧، ٢٧٣.

سورة آل عِمران: ٢١، ٧٣، ٨٦ إلى ٩٢، ١٤٥.

سورة النساء: ٨٣، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٦.

سورة المائدة: ٥٥، ٦٢، ٩١ إلى ٩٣، ٩٩، ١٠٠.

سورة الأنعام: ٦٧، ١٠٥ إلى ١٠٨، ١٢٦.

سورة الأعراف: ١٢٤، ١٢٩. سورة التوبة: ١١ إلى ١٤.

سورة يونس: ١٠٠ إلى ١٠١. سورة الرعد: ٤١.

سورة الحِجر: ١٠. سورة النحل: ٨٣، ١٠٥ إلى ١٠٧، ١٢٦.

سورة الإسراء: ٥٥. سورة الكهف: ٣٠.

سورة مريم: ٤٧. سورة طه: ٧٢ إلى ٧٤.

سورة الحج: ٤٠. سورة النور: ٥٥.

سورة الفرقان: ٤٢ إلى ٤٤. سورة الشعراء: ١١٧.

سورة القصص: ٥٧. سورة العنكبوت: ١٩.

سورة الزُّمَر: ٣٠ إلى ٤٢. سورة غافر: ٢٦،٢٧.

سورة الشورى: ٧، ٨، ٤٨، ٤٩. سورة محمد: ٢٦.

سورة ق: ٤٦. سورة الذاريات: ٥٧.

سورة التغابن: ٩ إلى ١٣. سورة التحريم: ٧.

سورة الغاشية: ٢٢،٢٣.

وقد تناولنا بعض هذه الآيات آنفًا ولمزيد من الإيضاح نذكر الآيات التالية: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ* كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ* خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ* إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (سورة آل عِمران:٨٦-٩٢).

يتبين من هذه الآيات أنّه ليس ثمة عقوبة ينزلها إنسان بإنسان آخر بسبب الارتداد. وقوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يشير جليًّا إلى الآخرة.. ولا يمكن لعاقل أن يجمح به الخيال ليفسر ﴿لَعْنَةَ اللَّهِ﴾ لتكون رخصة لقتل أحد ما باعتباره مرتدًا. ولم تذكر الآيات أي عقاب بالقتل. ولو كان هناك عقاب جسدي لتحدد هنا بوضوح طبقًا لمقتضيات التشريع الحاسمة المتبعة في كل الحدود. بل على العكس، إنّ القرآن يذكر فرصة التوبة والمغفرة الإلهية للمرتد. فكيف يمكن للمرء أن يتوب وينجو من خطاياه في هذه الدنيا إذا ما قُتل؟

إذا ما اعتبرنا هذا الحديث صحيحًا، فعلى أنصار عقوبة قتل المرتد أن يتفكروا في حل ما يترتب على قولهم من تناقض بين آيات القرآن الكريم. وعلى وجه الخصوص عليهم أن يتفكروا مليًّا في موقفهم على ضوء الآيات القرآنية التي سقناها آنفًا، وأن يعيدوا النظر فيها بعقل متجرد عن الهوى.. كيف يجوز لأحد أن يخلع على مثل هذا الحديث المشكوك فيه وزنًا يفوق آيات القرآن المحكمة البينة:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ* وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (سورة يونس: ١٠٠و١٠١).

فإذا كان الله بجلاله وعظمته لم يُكره الناس على الإيمان، فمن نحن حتى نرفع السيف، أو أن ننصب الفخاخ المودودية لإكراه الناس على الإيمان. المشكلة لدى هؤلاء القائلين بإعدام المرتد أنّهم يقبلون نصوص الأحاديث التي جُمعت بعد النبي ﷺ بمئات السنين، ولو كانت تتعارض تعارضًا بيّنًا مع تعاليم القرآن الكريم.

التعارض مع سنة النبي ﷺ

مصدرنا التشريعي الثاني بعد القرآن الكريم هو سلوك النبي ﷺ وفعله وأسوته العملية. ولقد أوضحنا فيما سبق بطلان الزعم بأن أحدًا أُعدم بسبب الارتداد. وبرغم كل شيء، ماذا كان موقف النبي ﷺ إزاء أهل مكة؟ كان يريد منهم أن يدعوه في سلام ليزاول عقيدته ويدعو الناس إلى

رسالة الله. ولم يسمح له المكيّون بهذه الحريّة، وعاقبوا الذين آمنوا به. كان المؤمنون به، من وجهة نظر أهل مكة، مرتدين.. هجروا دينهم وعقيدة تقديس الأوثان.

ولقد قضى النبي ﷺ حياته كلها في صراع للدفاع عن حقوق الإنسان الأساسية.. الحق في أن يكون كل إنسان حرًا في اختيار عقيدته الدينية، وألا يُكره إنسانٌ إنسانًا على تغيير دينه، وأنّ لكل إنسان حرية تغيير عقيدته الدينية إلى أي عقيدة أخرى كما يشاء.

وفي الواقع، كان هذا هو حقيقة معنى (الجهاد المقدس)، الذي شنّه كل رسل الله ضد مناهضيهم عبر تاريخ الدين. وقد ذكره القرآن الكريم مرارًا بشأن الأنبياء السابقين. (ولنرجع إلى الآيات القرآنية في سورة البقرة: ٥، وسورة الأنعام: ١١٣، وسورة الأنبياء: ٤٢، وسورة الفرقان: ٣٢، وسورة يس: ٨، ٣١، وسورة الزخرف: ٨). ولنأخذ بعض الأمثلة لهم: فهناك إبراهيم عليه السلام (سورة الأنعام: ٧٩: ٧٥ وسورة مريم: ٤٧، وسورة الأنبياء: ٥٣، ٥٩، ٦١، ٦٩، ٧٠، وسورة الصافات: ٩١: ٨٩)، وإلياس عليه السلام (سورة الصافات: ١٢٦و١٢٧) ولوط عليه السلام (سورة الشورى: ١٦٦: ١٦٨، وسورة النمل: ٥٧، وسورة الحجر: ٧١) ونوح عليه السلام (سورة الأعراف: ٦٠، وسورة يونس: ٧٢، وسورة هود: ٢٦،٢٧، وسورة النمل: ١١٧، وسورة نوح: ٢: ٢١). وموسى عليه السلام (سورة الأنعام: ١٠٥، ١٠٦و١٢٤: ١٢٧، وسورة يونس: ٧٦: ٧٩، وسورة الإسراء: ١٠٢،١٠٣، وسورة النمل: ٤٤،٤٥، وسورة ق: ٣، وسورة الشورى:

١٩: ٣٤). وعيسى عليه السلام (سورة آل عِمران: ٥٢: ٥٦، وسورة المائدة: ١١٨، وسورة مريم: ٣٧، وسورة الزخرف: ٦٥).. فيم كان جهادهم؟ ما كان جهادهم إلا رد فعل لإبطال دعوى مناهضيهم بأنهم لا حول لهم في الدعوة إلى تغيير عقيدة أقوامهم. الحقيقة أنّ لكل إنسان الحق في اختيار عقيدته.. ما دامت تتسم بالسلام والمودة، وتبلغ بوسائل سلمية. كان رد المعارضين عنيفًا إزاء أعظم المواقف معقولية وإنسانية، وأصروا على رفض مواقف الأنبياء، واستمسكوا بدعواهم أنّ الأنبياء لا حق لهم في تغير عقائد قومهم، وأنّ الأنبياء إذا لم يرجعوا عن مسلكهم فسيواجهون عقوبة الارتداد من وجهة نظر المعارضين.. ولم تكن سوى القتل أو النفي.

كان كفاح النبي ﷺ يسير بازاء معارضيه على سنة الأنبياء السابقين. فكيف يمكن لأي عاقل أن يتنكر لسنوات البعثة النبوية، ويتشكك في موقفه الثابت المتين على هذا المبدأ الأساسي؟ فإذا كان القرآن الكريم، وسنة النبي ﷺ والأحاديث الأخرى تتعارض تعارضًا كبيرًا مع هذا الحديث الذي هو موضوع بحثنا.. فما نرى سببًا أقوى من كل ذلك لعدم الاعتداد بمثل هذا الحديث.

الحديث من حيث توثيق الرواة والسند

هذا الحدث الذي فنّدناه آنفًا مروي في خمسة من كتب الصحاح المعروفة: البخاري والترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجه، وعند هذا الحد تقف صحته. ذلك لأن صحة الحديث لا تتوقف فقط على روايته في

بعض كتب الصحاح، بل هناك معايير أخرى يلزم توافرها للحديث. أهم هذه العوامل بحث دقيق وعميق لتفصيل شخصية الرواة وتسلسلهم.

هنالك علماء أوقفوا حياتهم لمثل هذه الدراسات، وبفضل بحوثهم المضنية الشاملة أصبحنا اليوم في موقف يتيح لنا دراسة أية علة في سلسلة الرواة. فلنلتفت الآن إلى الحديث الذي نحن الآن بصدده. يقع هذا الحديث في طائفة أحاديث الآحاد الغريبة (أي ورد في تسلسل عن راو واحد)، فهو عن عكرمة.

قال مولانا عبد الحي اللكناوي (رحمه الله) عن عكرمة: إن جامعي الحديث رووا عنه لأن البخاري روى له.. وذلك دون أن يتحروا عنه بأنفسهم. ومن الممكن أن يكون الحديث صحيحًا ومعتبرًا، ولو كان من طريق واحد (أي حديث آحاد).. ولكنّه لا يقف على قدم المساواة مع حديث له أكثر من طريق.. ومثل هذه الأحاديث لا يؤخذ بها في الأمور التي تتعلق بالحقوق والمسؤوليات والواجبات والعقوبات، وعلى وجه خاص في مسائل (الحدود). ويراد بالحدود تلك العقوبات التي حددها القرآن الكريم.. علمًا بأن دعاة قتل المرتد يحسبون أنّ رأيهم قائم على تعاليم القرآن، وأنّ قتل المرتد من الحدود. والحق، إننا فنّدنا هذا الزعم من قبل.

وليكن مفهومًا أنّ الحديث المذكور هو حديث آحاد، وليس له اعتبار.. حتّى وإن عُدّ صحيحًا عند بعض المصنّفين.. وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نتعرف أكثر على راوي الحديث وسمعته، عكرمة.

عكرمة

كان عكرمة رقيقًا عند ابن عباس وتلميذًا له. كان تلميذًا غير متحمسٍ ومتخلفٍ من الدرجة الأولى. ويعترف بنفسه: أنّ ابن عباس كان يغضب بشدة من قلة اهتمامه وتهربه من دروسه، حتى أنّه كان يقيده من يديه ورجليه ليحضر دروسه.(الطبقات الكبرى لابن سعد)

وكان عكرمة من المعارضين لسيدنا علي بن أبي طالب، وكان يميل إلى الخوارج، وخاصة عندما بدأت تظهر الخلافات بين سيدنا علي وابن عباس. وأخيرًا، في العصر العباسي.. كان العباسيون يعادون كلّ ما يرتبط بسيدنا عليّ لأسباب سياسية.. فاكتسب عكرمة شهرة كبيرة واحترامًا كعالم بارع متعدد المواهب. ومن البين أنّ ذلك كان بسبب خصومته لسيدنا علي وصلته بالخوارج. (ميزان الاعتدال)

يقول الحافظ الذهبي: إنّ عكرمة "كان خارجيًّا، وروايته مريبة لا يُعتد بها." والإمام علي بن المدايني يرى نفس الرأي، وهو عالم متخصص بعقوبة الارتداد.

وكان يحيى بن بكير يقول: إنّ الخوارج من مصر والجزائر ومراكش يميلون بشدة إلى عكرمة.

وعلى وجه العموم، لوحظ أنّ حديث قتل المرتد نشأ أساسًا بشأن وقائع حدثت في البصرة والكوفة واليمن. ولم يكن أهل الحجاز (مكة والمدينة) على معرفة بهذا كلية. ولا يستطيع المرء أن يغمض عينه عن أنّ هذا الحديث لعكرمة عراقي السلسلة. ولنذكر بهذا الصدد مقالة العلامة المكي

الإمام طاؤوس بن قيسان من أنّ أحاديث العراق مشكوك فيها على وجه العموم. (أبوداوود، ج٢)

ليس هذا فحسب، بل إنّ العلامة الكبير يحيى بن سعيد الأنصاري عاب على عكرمة عدم ثقة رواياته بصفة عامة، بل ذهب إلى أنّه كذّاب. (كتاب الضعفاء) أي يكذب بدرجة كبيرة.

يروي عبد الله بن الحارث واقعة مثيرة للغاية شهدها بنفسه عندما زار عليًّا بن عبد الله بن عباس. لقد صدمه وأحزنه أن رأى عكرمة مقيدًا إلى عمود خارج باب علي بن عبد الله بن عباس، وعبر عن ألمه لهذه القسوة بأن سأل عليًّا: ألا تتقّي الله فيه؟ يعني بذلك أنّ عكرمة، لما هو معروف عنه من الصلاح والتقوى، لا يستحق الإهانة والقسوة على يد ابن مولاه السابق. فأجاب عليٌّ مفسرًا سبب فعله ذلك بأنّ عكرمة يتجرأ على أن يعزو أقوالًا باطلة إلى أبيه عبد الله بن عباس.

فمن أحسن حُكمًا على عكرمة من علي بن عبد الله بن عباس؟ لا غرابة إذًا في أن الإمام مالك بن أنس (٩٥ إلى ١٧٩ هج) رائد الحفاظ المحدثين وإمام الفقهاء ومن أشهرهم في العالم الإسلامي.. يصنف الأحاديث المروية عن عكرمة في بند الضعيفة الواهية. (ميزان الاعتدال)

ويرى العلماء أنّ عكرمة يميل إلى المبالغة، منهم الإمام يحيى سعيد الأنصاري وعلي بن عبد الله بن عباس وعطاء بن أبي الربيع. (فتح الباري) هذا هو الرجل الذي روى الحديث، والمرجع الوحيد الذي يتوقف عليه حياة أولئك الذين يغيرون.. أو يتهمون بتغيير عقيدتهم إلى آخر الزمان.

ابن عباس

كلما جاء اسم ابن عباس في آخر سلسلة الرواة (أي سند الحديث).. استولت الرهبة على معظم علماء المسلمين. إنّهم ينسون أنّ واضعي الأحاديث يستثمرون اسمه وشهرته، فينسبون أحاديثهم المنحولة إلى سلسلة من الرواة تنتهي باسمه. ولذلك فإن جميع الأحاديث المنسوبة إلى ابن عباس يجب فحصها ودراستها تمامًا.

ثم إنّه لو كان الراوي صادقًا في روايته عن طريق عكرمة. فإنّ احتمال الخطأ البشري من جانب عكرمة وارد كذلك. والرواية التالية توضح هذا الأمر جيدًا:

"عن ابن عباس أنّ عمر بن الخطاب قال: إنّ النبي ﷺ قال: إنّ الميّت يُعذّب ببكاء أهله"، وقال إنّه بعد وفاة عمر رُوي الحديث للسيدة عائشة فقالت: غفر الله له ما قال النبي شيئا من ذلك. إنّه قال: إنّ بكاء أهل المشرك على جسد الميّت يزيد عذابه.. واحتجت قائلة:
ألا يكفيهم ما قاله الله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

فإذا كان رجل في منزلة سيدنا عمر وكماله يخطئ فهم قول النبي ﷺ، مهما كان ذلك نادرًا.. فكيف لعاقل أن يعتمد اعتمادًا تامًا على دلالة هذا الحديث، ويستخلص منه النتائج.. التي تصل إلى حد الحياة والموت وحقوق الإنسان الأساسية؟!

لا يستبعد أن يكون هذا الحديث من وضع عكرمة ونسبه إلى ابن عباس، كما قال علي بن عبد الله بن عباس.

معايير داخلية

إذا فحصنا موضوع الحديث قيد البحث وجدنا أن فحواه غلط من عدة طرق:

أولًا: إنسان في مكانة سيدنا علي لا يفترض فيه الجهل بأنّ الإسلام يمنع بتاتًا معاقبة الإنسان بالنار.

ثانيًا: جملة (اقتلوا من بدّل دينه) ذات دلالة عامة، بحيث يمكن تفسيرها بعدة تفسيرات. والعبارة على إطلاقها تصدق على الرجال والنساء والأطفال جميعًا مع أنّ الإمام أبوحنيفة وبعض المدارس الفقهية الأخرى لا توافق على قتل المرأة المرتدة.

ثالثًا: لفظة (دين) أيضًا كلمة عامة.. تعني أي دين، وليس الإسلام بعينه، بل إنّ دين عبدة الأوثان يسمّى دينًا.(سورة الكافرون)

وعلى ضوء ألفاظ الحديث هذه.. كيف يمكن حصر معناه في المسلم الذي يغير دينه؟ في لغة القانون الدقيقة وطبقًا لهذا الحديث، يقتل كل إنسان يغير دينه مهما كان هذا الدين، ويعني قتل اليهودي الذي يدخل في المسيحية، وقتل المسيحي الذي يسلم، وقتل الوثني الذي يعتنق أي دين.. إنّ إطلاق كلمة (مَنْ) تتجاوز أيضًا حدود الدولة الإسلامية، بمعنى أن يُقتل مبدّل دينه حيثما كان.. في فيافي أستراليا أو مجاهل أفريقيا أو غابات الأمازون.. !

يؤكد الإسلام تأكيدًا عظيمًا على التبليغ لهداية الناس للإسلام، بحيث أنّه يكلّف كل مسلم بأن يكون مبلغًا وداعيًا إلى الله. فكم هو مثير للسخرية

أن ينسخ اليوم بعض علماء المسلمين المعروفين روح الجهاد الإسلامي الحقة، ويركنوا بتهور إلى فكر عقيم ضيق الأفق.. يزعم أنّ الإسلام يفرض قتل من يبدّل دينه، وهو الإسلام بحسب هذا السياق. وماذا بشأن الديانات الأخرى؟ إنّ الإسلام يُعلن بأنّ واجب الالتزام على كل مسلم دائمًا بهدف نبيل.. هو الجهاد الحثيث لتبديل كل غير المسلمين بطريقة سلمية. وهذه مهمة أساسية هامة، وتتطلب من كل مسلم أن يواظب عليها طوال حياته. يقول القرآن الكريم: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (سورة النحل:١٢٦).

إنّ المدافعين عن مبدأ منتحل غير إنساني.. مبدأ قتل المرتد.. لا يقدّرون عواقبه على العلاقات الإنسانية فيما بين الأمم والديانات. لماذا لا يدركون أنّه.. طبقًا لفكرهم هذا يحق لأهل الديانات الأخرى تغيير دينهم، ولكن المسلمين ليس لهم هذا الحق، وأنّ الإسلام له الحق وحده في تحويل الناس إليه، ولكن أتباع الديانات الأخرى لا حق لهم في تحويل المسلمين إلى عقائدهم؟ ما أسوأ الصورة المؤسفة التي يعرضون بها عدالة الإسلام؟!

وخلاصة القول: إن الارتداد هو أن يجحد المرء دينه الذي كان عليه صراحة. أمّا الاختلافات المذهبية مهما كانت خطيرة فلا تعتبر ارتدادًا. وعقوبة الارتداد في يد الله العلي القدير لمن وقع في هذا الإثم الشنيع. وجريمة الارتداد.. إذا لم تغلظها جرائم أخرى ليست لها عقوبة دنيوية. هذا

هو تعليم الله تعالى. وهكذا كان تعليم النبي ﷺ، وهذا ما يؤكده فقهاء الحنفية. شلبي والحافظ بن القيّم، وإبراهيم النخعي وسفيان الثوري وكثيرون غيرهم.(فتح القدير). ودعاوى المودوديين.. أمام هذا الإجماع بشأن الحديث الذي يزعمون صحته.. ليست إلا محض سراب.

الفصل الثامن

رحمة للعالمين

"كانوا من المهارة بحيث أدركوا أنّ أشدّ ما تكون مشاعر المسلمين إثارة عندما تبلغهم إهانة حقيقية أو متوهمة ضدّ النبي ﷺ. فأعلنوا على الناس أنّ كل جهودهم إنما تهدف إلى المحافظة على نبوة محمّد ﷺ، وردّ الهجمات على شرفه. ونجحت اللعبة واجتذبوا عددًا أكبر من المتفرجين إلى اجتماعاتهم. ولمّا كان بعض الخطباء من "حزب الأحرار" متمرسين في اختيار الكلمات والتعبيرات، واللعب بالتشبيهات والاستعارات، ويحسنون تزويق حديثهم بلمحات من الفكاهة البذيئة.. سرعان ما اكتسبوا لهم شعبية بين الجماهير." (لجنة تحقيق القاضي منير).

إيذاء الأنبياء قديم قدم النبوة نفسها، ولم يسلم منه سيدنا محمد ﷺ، فقد استهزءوا به، ليس في الفترة المكية واحدة وإنما في المدينة أيضًا عندما كان يملك المقدرة على العقاب. فقد كان لليهود ألسنة حداد، ومزاح مُغرض، فلم يدعوا فرصة للسخرية بالنبي ﷺ إلا وانتهزوها.

بعد الهجرة تحالف المكيون مع اليهود لوقف تقدم الإسلام. وكان المنافقون قد شرعوا في أعمال الطابور الخامس. ففضلًا عن مكائدهم وحربهم، أنشأوا شبكة اتصالات لبث الإشاعات ضد الإسلام. كان دعاتهم من الشعراء الذين وصفهم ماكسيم رودنسن (Maxime Rodenson) بأنهم صحافة اليوم، ووصفهم كارميتشيل (Charmichael) بأنهم مؤججو نار المعارك. فعيّروا مسلمي المدينة بأنّهم أذلوا أنفسهم، وأسلموا أعنّتهم لغريب عنهم. أنشد أبوعفق وهو من بني عمرو بن عوف يتعجب من مسلك أبناء قيلة، أي الأوس والخزرج، الذين رفضوا الخضوع لتُبّع مع عزّه وملكه، فما الذي جرى لهم حتّى يقبلوا التسليم للاجئ جاءهم من مكة، فهدّ جاههم وحلّل وحرّم فيهم:

لقد عشت دهرًا وما إن أرى ... من الناس دارًا ولا مجمعًا
أبرَّ عهودًا و أوفى لمن ... يعاقد فيهم إذا ما دعا
من أولاد قيلة في جمعهم ... يهد الجبال ولم يخضعا
فصدّعهم راكب جاءهم ... حلال حرام لشتى معًا
فلو أنّ بالعز صدقتُهُم ... أو الملك.. تابعتمو تُبّعًا

وقد اغتنم لقرح قريش يوم بدر.. كعب بن الأشرف الذي صار رئيسًا لليهود، فقال يرثي قتلاهم ويحرّض قريشًا على النبي ﷺ:

ألا فازجروا منكم سفيهًا لتسلموا ... عن القول يأتي منكم غير مقاربِ
أتشتمني أنْ كنتُ أبكي بعبرةٍ ... لقومٍ أتاني ودّهم غير كاذبِ
فإني لَباكٍ ما بقيت و ذاكرُ ... مآثر قوم مجدهم بالجباجب

يقول لأهل المدينة: اطردوا ذلك السفيه الذي يقول ما لا معنى له من القول. ويدفعه لومهم لبكائه على قتلى بدر لأنهم يربطهم به ود صادق، وسيبقى ذاكرًا أمجاد أهل مكة طوال حياته.

من الواضح أنّ الغرض من هذه الحملة البذيئة المسعورة.. هو بذر بذور الفرقة بين المهاجرين والأنصار من ناحية، وبين الأوس والخزرج من ناحية أخرى. وكادت الحملة أن تؤتي ثمارها عندما دسّ (أشعث بن قيس) من بني قينقاع.. أحد فتية اليهود لينشد أبياتًا من الشعر الذي قيل يوم بُعاث، وهو يوم كان بين الأوس والخزرج، وانتصر فيه الأوس.

ففعل الفتى ذلك بين جماعة تضم القبيلتين. فذكر القوم ذلك اليوم وتنازعوا وتفاخروا واختصموا، وقال بعضهم لبعض: إن شئتم رددناها الآن. وتواعدوا وتنادوا السلاح السلاح! وما إن بُلّغ النبي ﷺ بالخبر، حتى أسرع إليهم فيمن معه من المهاجرين وقال لهم:

"الله الله! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف بين قلوبكم؟" ونزل بهذه المناسبة قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ* وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ* وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ

بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة آل عِمران:١٠١-١٠٤).

هكذا كان القلق والاضطراب الذي أثاره الشعراء في المدينة عندما قرر النبي ﷺ أن يوقف حملتهم ضد أمن الجماعة الإسلامية، وطلب المتطوعين للقضاء عليهم. من الواضح أنّهم أصبحوا خطرًا يقضي على السلام. والقول بأنّهم قُتلوا لأنّهم سبّوا النبي ﷺ إنّما هو تزييف لحقائق التاريخ. كما أنّ الاستناد إلى هذه العقوبات على أنّها سابقة تبرر قتل من يسبّون النبي ﷺ هو إما أنّه خيانة متعمّدة أو جهل مطبق بالتاريخ. إنّ جريمة سب الرسول ﷺ ليست من الجرائم التي شرّع لها القرآن الكريم حدًا من الحدود. والواقع أنّها جريمة لا عقوبة عليها في الدنيا أبدًا.. إلا إذا صاحبها ظروف مغلظة. ذلك لأنّها كجريمة الارتداد.. تقع عقوبتها في يد الله تعالى وحده. ويسلك القرآن المجيد سبيل المودة بدلًا من السيف لصيانة الشرف الإلهي وشرف أنبيائه. يقول تبارك وتعالى:

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ..﴾ (سورة الأنعام:١٠٩).

إن الاحترام والتكريم والمحبة والتقدير نحو شخص ما.. كلّها تنبع من القلب. قد تخرص القوة الألسنة، وتثير الفزع ولكنّها تورث الازدراء وعدم التوقير. ولذلك أخذ القرآن بالطريق الإيجابي في الأمور التي تتعلّق بالقلب. فعن احترام النبي ﷺ وتبجيله يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا* إِنَّ الَّذِينَ

يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا* وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (سورة الأحزاب:٥٧-٥٩).

والقرآن المجيد واضح جدًا في موضوع (السب)، فهو يعلم المسلمين ألا يُحقروا الآلهة الباطلة التي يعبدها المشركون والكفار. كم أنّه لم يشرع عقوبة دنيوية لمن يبدي منهم عدم الاحترام للنبي ﷺ، فقد أعدّ الله تعالى له لعنة الدارين وعذاب الآخرة.

والآن كيف كان "الأسوة الحسنة" ﷺ يعامل من يسبونه؟ فلنرجع بذاكرتنا إلى كبير المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول بعد موقعة بني المصطلق، (٦هج/٧٢٧م). عند ماء يُقال له (المُريسيع) حدثت مشادة بين رجلين أحدهما من المهاجرين والثاني من الأنصار، فقد تزاحم أجير لسيدنا عمر بن الخطاب يدعى جهجاه بن مسعود مع سنان بن وبر الجهني حليف بني عوف من الأنصار. يقول المؤرخ ابن إسحاق:

"فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار! وصرخ الجهجاه: يا معشر المهاجرين! فغضب عبد الله بن أُبي بن سلول، وكان عنده رهط من قومه (فيهم زيد بن أرقم، وكان غلامًا حدثًا)، فقال: أوَقَد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا. والله ما عُدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأوّلون: سمّن كلبك يأكلك. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرجنَ الأعزُّ منها الأذلّ. ثمّ أقبل على من حضر من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم. أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم.

فسمع ذلك زيد بن الأرقم ومشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك بعد فراغه من عدوه. فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب ﵁، فقال: مُرْ به عبّاد بن بشر فَلْيقتُلْهُ. فقال له رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا، ولكن آذن بالرحيل."

نعم كان طبيعيًا أن ينزعج النبي ﷺ لذلك الحدث كثيرًا. فقد ذكّره صياح الجهني: يا للأنصار، وصياح الجهجاه يا للمهاجرين.. بصيحات القبائل يوم بعاث ويوم البسوس التي استمرت أربعين عامًا. لو أنّ عبد الله بن أُبي أفلح في الوقيعة بين الأنصار والمهاجرون لرجعوا إلى الحروب القبلية، ولضاعت إلى الأبد رسالة الوحدة الإسلامية التي نسجت من قبائل العرب المتناحرة أمة واحدة. كان النبي ﷺ مستاءً حتى أنّه أمر القوم بالرحيل في ساعة لم يكن ﷺ يرتحل فيها. (تاريخ ابن إسحاق)

ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحادثة في قوله تعالى:

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ* يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة المنافقون:٨،٩).

وعندما سمع بهذه الواقعة عبد الله ولد عبد الله بن أُبي.. ذهب إلى النبي ﷺ وقال له:

"يا رسول الله! إنّه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنتَ لا بدّ فاعلًا فمُرْني به، فأنا أحمل إليك رأسه. فوالله لقد علمَتْ

الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منّي، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبي يعيش في الناس فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافرٍ، فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا." (السيرة النبوية لابن هشام)

كان حكام المسلمين الذين أدركوا لماذا عامل النبي ﷺ عبد الله بن أُبي وغيره من المنافقين واليهود بما عاملهم به، راغبين عن خلق (شهداء) بالباطل فلم يلجأوا إلى عملية حماية شرف الرسول ﷺ، أو (ناموس الرسول) بحسب التسمية الباكستانية. فقد تكونت في قرطبة بين عامي ٨٥٠و٨٥٩ هج، جماعة من المتحمسين المسيحين تحت قيادة يولوجيوس (Euloguis)، واعتزمت هذه الجماعة شتم النبي ﷺ علانية حتى يُقتلوا وينالوا الشهادة! ولكن قضاة قرطبة رفضوا إسداء هذا (الجميل) إليهم، واكتفوا بسجنهم.

ويحكي ويل دورانت (Will Durant)حادثة مشابهة فيقول:

"ذهب الراهب القرطبي إيزاك إلى القاضي وأبدى رغبته في اعتناق الإسلام. ولما شرع القاضي مسرورًا في عرض مبادئ الإسلام وشرحها له.. قاطعه الراهب قائلًا: إنّ نبيك قد كذبك وخدعك. عليه اللعنة، ذلك الذي جر خلفه الكثير من التعساء إلى الجحيم! فاستنكر القاضي قوله، وسأله: هل أنت سكران؟ فأجاب الراهب: إني في تمام عقلي. احكم علي بالموت! فأمر القائد بسجنه، ثم استأذن الخليفة عبد الرحمن الثاني في إطلاق سراحه على أنّه مجنون." (Will Durant تاريخ الحضارة، نيويورك، سيمون وشتسر، ١٩٥٠، ج ٤، ص ٣٠١)

ولقد سمح شيخ الإسلام أبوالسعود أفندي مفتي السلطنة العثمانية أيام السلطان سليمان الكبير بتوقيع عقوبة الإعدام على من اعتاد سب النبي ﷺ علنًا. ولكن شيخ الإسلام أصرّ على عدم الاستخفاف عند إصدار حكم الإعدام، وأكد رغبته في تجنب أحكام الإعدام الناجمة عن الاستهتار أو الحقد، وأعلن أن المذنب لا يحكم بكونه معتادًا "بمجرد شهادة شخص أو اثنين"، بل يثبت الاعتياد بشهادة مسلمين لا يعرف عنهما التعصب، ومبرئين من الهوى. ولكن هنالك ملحقًا هامًا لهذه الفتوى أصدره شيخ الإسلام أبوالسعود فحواه أن تلك الفتوى لم يكن لها سند من القرآن، أو السنة، وأنّه يعلم أن عقاب المرتد يستقر بين يدي الله تعالى وحده. ولعل صدور تلك الفترة كان تحت ضغط سياسي قوي، لأن الملحق ألغاها وأبطل مفهومها تمامًا.. عندما نص على أن الكفار لا يعدون مذنبين إذا هم صرحوا "بمضمون كفرهم"، أي كفرهم بنبوة محمد ﷺ.

الواقع أنّه لا يمكن تقديم تعريف شرعي لنوعية إيمان المسلم ومدى احترامه للنبي ﷺ. وبالمثل لا يمكن إكراه كافر على اعتناق الإسلام أو تكريم النبي ﷺ تحت تهديد السلاح. لذلك لم يشرع الله تبارك وتعالى أية عقوبة دنيوية على الارتداد أو سب النبي الأكرم ﷺ، وعلى الرغم من كلمات الاستخفاف القبيح التي تطاول بها عبد الله بن أُبي عند ماء المريسيع على مقام النبي، فإنّ النبي ﷺ لم يعاقبه.

إنّ وجود عقوبة دنيوية على هاتين الجريمتين يسهل على رجال الدين المشتغلين والمرتزقين بالسياسة منهم.. استغلال العقوبة واتخاذها ذريعة

لأغراضهم، فيحطون من شأن الدين باستخدام حدوده في أهداف دنيوية، ويستغلون العقيدة الدينية لمصالحهم الخاصة. (لجنة تحقيق القاضي منير)

في هذه الأيام يتهم علماء الديوبنديين وأهل الحديث.. يتهمون الجماعة الإسلامية الأحمدية بإهانة النبي ﷺ.. (ونعوذ بالله من ذلك). وباتهامهم هذا لا يكادون يدركون أنهم يجهزون بأيديهم أداة تدميرهم أنفسهم. فالديوبنديين وأهل الحديث والوهابيون أتباع المصلح النجدي محمد بن عبد الوهاب.. هم في الواقع أقلية ضئيلة بالقياس إلى الغالبية من أهل السنة في معظم بلاد الإسلام.. وهم أيضًا متهمون بجرأتهم على النبي ﷺ والتهوين من شأنه. كما وأن الديوبنديين والوهابيين يكفرون عامة المسلمين من أهل السنة لأنهم يبالغون في تعظيم قدر النبي ﷺ إلى درجة الشرك بالله حسب رأيهم. فمنهم مثلًا من يقول بأن النبي ﷺ ليس له ظل لأن جسده مملوء من النور! ومنهم من يقول أنه إذا ما انتهى الإنسان من إنشاد "موعود شريف" الذي أشاعه الشاعر التركي سليمان شلبي، ويقول "يا نبي! سلام عليك"، فتحضر روح النبي عند ذلك، ومن ثم يجب على الحاضرين جميعًا أن يقفوا إجلالًا واحترامًا! وكذلك هم يصلون عند قبره ﷺ ويقبلون شباكه. وللبريليون وأهل السنة معتقدات وأعمال كثيرة تعد من الشرك عند الديوبنديين، ولقد أزال الوهابيون ساحة المدافن التاريخية بالمدينة والمعروفة باسم (جنة البقيع)، وحاولوا إزالة قبة المسجد النبوي، وما منعهم من ذلك إلا ردود الفعل الشديدة من مسلمي العالم. وبسبب هذه الأفعال من هدم المقابر والأضرحة والقباب يتهم عامة أهل السنة في العالم الوهابيين بأنهم يشوهون ويحقرون

اسم النبي ﷺ. ويعتقد البريليون أن علماء الديوبانديون أمثال مولانا محمد قاسم النانوتوي والشيخ أشرف علي التهانوي لا يؤمنون بختم النبوة. وفي كتيب باسم "إيمان العلماء الديوبانديين" كتب الشيخ عبد المصطفى أبو يحيي محمد معين الدين الشافعي القادري الرضوي التهانوي يقول:

"أيها المسلمون! انظروا كيف أن هذا القول اللعين الدنس الشيطاني دمر أساس (ختم النبوة). انظروا كيف أن المولوي قاسم النانوتوي لا يؤمن بختم النبوة، في حين أن المولوي رشيد أحمد والمولوي خليل أحمد وغيرهم من علماء الوهابيين صرحوا بكفر منكر ختم النبوة." (ديوبندي مولويون كا إيمان، لويل بور).

وباسم حماية النبي ﷺ.. وهو المثل الأعلى في الحياء والاحتشام.. وصل المجادلون من الفريقين: (البريلويون والديوباندیون) إلى درك من السوقية والإسفاف حتى إن أهونها يؤذي الأسماع. كتب شورش كاشميري، وهو من أنصار المدرسة الديوبندية، في منشور تحت اسم "كافر ساز ملان":

"إن كلّ من يرمي الرئيس الأعلى للديوبانديين بالكفر فهو كذاب" وقال في نفس المنشور: "إن علماء البريلويين يتاجرون في الدين وشريعة النبي ﷺ، ليكسبوا قوّتهم. إنهم ولدوا في خدمة حاشية لورد كلايف Lord Clive، أعداء الرابطة الإسلامية والقائد الأعظم محمد علي جناح مؤسس باكستان." وفي منشور آخر قال: "إن هؤلاء القوم (أي البريلويون) أحط من لبنة في مرحاض مولانا حسين أحمد وسيد عطاء الله شاه البخاري" (المرجع السابق).

ويرد البريليون على هذه التهمة المهينة ردًا لا طعم له. فقالوا: "إن هذا الذي يفتري علينا وعلى النبي ﷺ رجل قضى حياته يتسكع في الأحياء الحمراء المشبوهة.. الرجل الذي أطلق على (نهرو) الهندوسي لقب النبي.. يأتي اليوم ليتهمنا بأننا نبيع شريعة النبي ﷺ. وصرخوا قائلين: "لماذا لا يُدعى محمد قاسم النانوتوي كافرًا؟ وكيف نقبل أشرف علي التهانوي بين المسلمين! أليس هم الذين قالوا أن باب النبوة مفتوح؟ أليسوا هم رواد الطريق للقاديانيين؟ من علمك السباب يا مصطفى؟ من علمك الكفر؟ لقد تجردت عن ثيابك وتخليت عن حيائك. ألم يعد لديك أي إحساس بالحشمة أو الأدب؟ لقد أحدثت الاضطراب باسم (ختم النبوة)، وأشعت الفوضى بدعوى السلام. إنك تجمع المال باسم (النبوة)، وتتسول باسم النبي ﷺ." وقال الشاعر سيد محمد تنها:

من أين لك أن تعرف قدر أحمد رضا؟
اذهب وتشمم سراويل الهندوس المنتنة
الذهب نبيك، والتبر إلهك.
أنت من الحزب الذي يظهر لك الإبريز..
لقد أمضيت عمرك كلّه في الكفر..
أنّى لك، أيها الكهرتي الهندوسي أن تدخل في الإسلام؟
أيها النمرود، كيف لك أن تمجد الله؟
إنّ مكانك هناك بين الهندوس فاذهب إليهم..
ومجّد معهم باسم "هاري هاري"

قارن بين اللغة، والأسلوب، والمضمون في هذا الهجوم البريلوي على علماء الديوبنديين.. وبين قائمة الاتهامات التي يفتريها الديوبنديون ضد الجماعة الإسلامية الأحمدية:

١. ينكرون ختم النبوة،
٢. يشوهون اسم النبي ﷺ،
٣. صنيعة الإمبريالية البريطانية،
٤. عارضوا قيام دولة باكستان،
٥. يعارضون الجهاد،
٦. يوالون غير المسلمين،
٧. هم عربدة باسم الدين!!

يتبادل أهل السنة والجماعة (البريلويون) وطائفة الديوبنديين تهمة تشويه اسم النبي ﷺ، وكما رأينا فيما سبق فإن جماعت إسلامي وصفت جماعة أهل القرآن بأنهم أسوأ من الأحمديين. ولم يسلم الشيعة من تهمة الحط من قدر النبي ﷺ لادعائهم أن عليًّا شريكه في النبوة.

زار الباحث الكندي ولفرد سميث شبه القارة الهندية، وشاهد المجتمع المسلم في الهند وباكستان عن كثب. ورمى المسلمين بتهمة (التعصب الناري العنيف)! قال في كتابه (الإسلام في الهند الحديثة):

"يسمح المسلمون بالتهجم على الذات الإلهية، فهناك منشورات إلحادية وجماعات علمانية. أما تشويه اسم محمد فإنه يثير تعصبًا ناري العنف، حتى في أشد قطاعات المجتمع تحررًا." (Wilfred Cantwell Smith, Modern Islam in India Lahore,1947).

وهذا التقييم لمزاج المسلمين غير سليم.. لأن البروفيسور كانتول سميث لجأ إلى التعميم. والحقيقة أن المولويين والقيادات الدينية ذوي النزعة السياسية هم الذين يحلو لهم القول بأن مشاعر المسلمين أسهل ما تكون هيجانًا، وأشد ما تكون ثورة عند إهانة حقيقية أو متوهمة في حق النبي ﷺ.

لا شك أن الأغنياء والفقراء، المثقفين والأميين، المتقين وغير الورعين.. كلهم يتحدون في حب النبي محمد المصطفى ﷺ، ويعتبرون (الفناء في الرسول) هو قمة الشعور الديني. ولكن ما من مسلم عاقل يغفل عن أن أعلى تجربة روحية للنبي ﷺ كانت المعراج، عندما أحاطت به سحابات ملائكية، حلقت به إلى الحضرة الإلهية.. إلى حيث لا يصل ملاك وإن كان في منزلة جبريل. إن القادة المسلمين الجوعى إلى السلطة السياسية هم الذين ينسون أن شهادة (محمد رسول الله) تأتي بعد شهادة (لا إله إلا الله).

ليست هناك وسيلة لقياس الحب والاحترام. لقد كتب المحبون والمتصوفون الشعر دواوين بعد دواوين، ووهبوا حياتهم محاولين الإعراب عن مشاعرهم.. فما استطاعت لغة الإفصاح عنها تمام الإفصاح. يمكن للمولويين أن يتصفحوا أشعار الحب، ولكنهم لا يفهمونها. ولم يكن الأمر وليد مصادفة.. أن كان مؤسس الحركة الإسلامية الأحمدية يدعى غلام أحمد. فيا له من شرف! ويا لها من منزلة! ويا له من مجد! يرد حضرته على من يتهمونه (إفكًا وزورًا) بتشويه اسم النبي الأكرم ﷺ، ويرد على نقاد الإسلام من أمثال كانتول سميث.. الذين يتهمون المسلمين بالإغضاء عن المقام الإلهي بمثل قوله:

إني لنشوان بعشق محمد من بعد حب الله جل جلالُهُ
إنْ كان هذا الكفر إني لكافر ربي شهيد قد سباني جمالُه

ويقول أيضًا:

أيا حي! ويا محسنًا إليّ! ليت حياتي تبذل في سبيلك..
فمتى كنت لا تبالي بهذا العبد أو حجبت كرمك عنه!!

ويقول حضرته أيضًا:

إذا جرت العادة في مدعي محبتك.. أن تجزّ أعناقهم أمام عتبتك..
فليعلموا جميعًا أنني.. أول من يطلب هذه المكافأة.

(مرزا غلام أحمد، إزالة الأوهام، وآئينة كمالات الإسلام)

لقد أعلن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، بكل وضوح وصدق، إيمانه بأن النبي ﷺ صاحب المكانة العليا بوصفه (خاتم النبيين)، فقال:

"إنّ أساس عقيدتنا، وخلاصته إيماننا، أنّه لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله. والملة التي نحن عليها في حياتنا الدنيا والملة التي سنغادر مقامنا الانتقالي ونحن عليها بفضل الله تعالى.. هي أن سيدنا ومولانا العظيم هو محمد ﷺ وأنّه خاتم النبيين، وأن نبوته نعمة جليلة.. تهدي الإنسان رأسًا إلى ربه، وأن النبوة وصلت به ﷺ إلى كمالها الذي لا مزيد عليه." (مرزا غلام أحمد، ازالة أوهام، أمرتسار، ١٨٩١م، ج١، ص ١٣٨).

وقال أيضًا: "إن المنزلة العليا التي تجمع كل ما هو خير.. هي منزلة سيدنا ومولانا خاتم النبيين محمد المصطفى ﷺ. إنها منزلته الفريدة التي لا تُطال." (مرزا غلام أحمد، توضيح المرام، أمرتسار ١٣٠٨ هج، ص٢٣).

كاتب تلك الفقرات التي سقناها آنفًا هو سيدنا مرزا غلام أحمد الذي يقال عن أتباعه أنهم (غير مسلمين)!.. ومن سماهم بهذا الاسم؟

إن الذين رموا أتباع مؤسس الحركة الأحمدية هم من المسلمين الذين وصفهم السير محمد إقبال في قصيدة طويلة قال فيها:

إنهم ذوو أيد عاجزة.. وقلوب كافرة ملحدة..

مجتمعهم يصيب نبيهم بالحسرة والعار.

ولى منهم محطمو الأصنام..

وسكن فيهم صانعو الأوثان..

أبوهم كان إبراهيم، ولكن الأبناء ورثوا اسم آزر..

عصابة من السكارى.. جديدة وغريبة

وخمرهم أيضًا جديد وغريب..

كعبتهم فيها مقام جديد..

والأصنام أيضًا هناك جديدة..

صلاة الفجر ما أثقلها على قلوبكم..

كم تؤثرون النوم على عبادتي!

شهر رمضان شديد الوطأة عليكم.. فتسعون إلى التنصل من احتماله

أخبروني الآن، هل يدور قانون الولاء بخلدكم؟

إنما تقوم الأمم بالإيمان.. إن ضاع إيمانهم هلكوا..

إن تعطل قانون الجاذبية تناثرت النجوم بعيدًا.. لماذا أنتم هكذا مجردون من كل حيلة؟

ما من أمة أخرى في هذا العالم تستهتر بموطنها..

إنكم كحظيرة تعشش فيها الخنافس، وتبقى فلا ترحل..

إنكم لتبيعون قبور آبائكم، وترون ذلك فعلًا سديدًا..

إذا كنتم تربحون من أحجار المقابر، وذاع عنكم هذا الصيت..

فلمَ لا تتاجرون في الأصنام إذا أتيح لكم تصيّد بعضها؟

تتعالى الصيحات: يا مسلمون!

لكنهم اختفوا وغابوا عن الأبصار..

ويرجع الصدى، أليس هناك مسلمون صادقون في أي مكان؟

المسيحيون مثلكم الأعلى وقدوتكم في نهج الحياة! والهندوسية ثقافتكم!

هؤلاء المسلمون عار وخزي حتى عند اليهود..

إن لديكم ما يكفي من ساداتٍ ومرْزَيات وأفغانٍ وما إلى ذلك..

ولكن هل تستطيعون الادعاءِ بأنكم مسلمون.. لو كان هناك حق يُقال؟

ها هو السير إقبال، الفيلسوف والمفكر، وأبرز الشخصيات في الهند الإسلامية خلال القرن العشرين.. يعلن أن مسلمي العصر معرّة حتى بالنسبة لليهود وأنهم يبيعون حتى قبور أسلافهم. ثم إذا به بعد ذلك.. يا سبحان الله! يريد أن يميز ما بين (المسلمين هؤلاء!) وبين الأحمديين، لذلك كتب عام ١٩٣٦ رسالة مفتوحة إلى باندت جواهر لال نهرو زعيم الأغلبية الهندوسية في المؤتمر الوطني الهندي، والذي كان أول من تولى بعد ذلك رئاسة الوزارة الهندية، يطلب منه إعلان الجماعة الإسلامية الأحمدية

أقلية غير مسلمة! وبالطبع فإنهم في دستور الهند العلمانية تجاهلوا هذا الطلب، بيد أن الأمر كان عند علماء ديوبند مسألة حياة أو موت!

لقد احتل الهندوس مسجد البابري في (أجودهيا) وحولوه تحت حماية البوليس إلى معبد (رام جانما بهومي). وطالبت فرقة أخرى من الهندوس بتحويل مسجد (بنارس) و(كاشي) إلى معبدين لهما. وكان معظم الهندوس يثيرون المشاعر لإلغاء القانون الملّي الخاص بالمسلمين.

هذا ما جرى لقوم يرفضون أنبياء الله تعالى وأهل السلام.. فإذا بهم يقبعون ممزقين محرومين من نعمة السلام الذي سعوا لتعكير صفوه.. فاستولدوا بذلك العنف والإرهاب.

الفصل التاسع

أإرهاب وإسلامي؟!

ما هو الإرهاب الإسلامي يا ترى؟

إن صلة الإسلام بالإرهاب تشبه صلة النور بالظلام، أو الحياة بالموت، أو السلام بالحرب. نعم، إنهما فعلًا يتلاقيان ولكن ذلك من جهتين متناقضتين تمامًا. تراهما يتماسكان، ولكنهما لا يسيران سويًّا في سعادة أبدًا.

ولا يسع المرء أن ينكر تورط بعض المسلمين في مناسبات عديدة في أنشطة إرهابية، لصالح جماعة أو دولة إسلامية. ولكن أليست هناك جماعات أخرى غير إسلامية تقوم بأعمال الإرهاب والتدمير؟ أليس من الأنسب أن نسمي كل أنواع الإرهاب طبقًا لنفس المبدأ الذي اتبع عند إطلاق اسم (إرهاب إسلامي).. فتكون عندنا قائمة تضم الإرهاب السيخي، والإرهاب الهندوسي، والإرهاب المسيحي، والإرهاب اليهودي، والإرهاب البوذي، والإرهاب اللاديني، والإرهاب المادي، والإرهاب الوثني؟

ليس من اليسير أن نغمض العيون عن أصناف متنوعة من الإرهاب، تزدهر للأسف في شتى أنحاء العالم. والواقع أنه من المستحيل أن يخفى على

أي مراقب ما يحدث من اضطهاد وسفك ودم وقتل باسم مثل أعلى أو هدف نبيل مزعوم. فالإرهاب مشكلة عالمية، ويتطلب دراسة من منظور أوسع. وإذا لم نفهم القوة الفعالة وراء العنف، فلن نتمكن من فهم السبب في تحول جماعات وحكومات إسلامية نحو الإرهاب لتحقيق أهداف معينة.

إني على قناعة تامة أن أي عنف طائفي يشهده العالم اليوم، ومهما كان الرداء، الذي يستتر تحته، هو في غالب الأمر سياسي من أساسه. فالدين ليس المستفيد، وإنما هو ضحية تُستغل لصالح سياسية.. داخلية أو خارجية.

مثالًا لذلك، هناك الإرهاب الناشئ عن العنصرية، ولكن التحليل يصل بنا في النهاية إلى طبيعته السياسية. وهناك أيضًا أنماط من الإرهاب تتولد تعبيرًا عن التمرد والكراهية ضد نظم اجتماعية وحضارية سائدة، وتعزى هذه عامة إلى أنها من أعمال المجانين أو الفوضويين. وهناك نوع خاص من الإرهاب يُنسب إلى صراع المافيا للتسلط والسيادة، وهذا الإرهاب يدور بين عصابتين أو أكثر داخل تنظيمات المافيا نفسها. ومن البيّن أن هذا الإرهاب صراع بين القوى، ومن ثم فهو إرهاب سياسي.

لو أننا تأملنا ما يسمى بالإرهاب الإسلامي لاكتشفنا القوة السياسية التي تعمل خلف واجهة إسلامية. وفي أغلب الأحيان لا يكون المناورون والمنتفعون هم المسلمون أنفسهم. ولنلتفت إلى بعض أمثلة من الإرهاب كي نشخص الأمراض المسببة لها. ولنبدأ بإيران لنرى كيف تولدت الخومينية في إيران.

من المعلومات الشائعة أن أيام الشاه كانت أيام ازدهار اقتصادي. وبشرت الخطط الطموحة للتطوير الصناعي والاقتصادي بمستقبل زاهر للبلاد. ولكن هل بالخبز وحده يحيا الإنسان؟ الإجابة قطعًا بالنفي. وما دام الإيرانيون في إيران تحت الحكم الاستبدادي للشاه كانوا يريدون المشاركة في مسؤوليات ما يجري في بلادهم.. ولم يكن بوسعهم أن يكتفوا بامتلاء بطونهم فحسب. إن جوعهم إلى احترام الذات والكرامة، ورغبتهم الملحة في الحرية والتحرر من نظام قمعي شديد الصرامة.. جعلهم متبرمين متفجرين متضجرين، وتفاقم الموقف بعد ذلك إلى ثورة دموية عنيفة.

لو لم تكن لهذه الثورة الوشيكة طبيعة إسلامية.. لكان من الممكن أن تكون شيوعية، وأشد دموية وتطرفًا. كان الاضطراب الذي هز إيران من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها، مولودًا حتميًّا وطبيعيًّا لقمع سياسي طال أمده، وإنكار لحقوق الإنسان الأساسية وحرياته، مصحوب بتخريب واستغلال من جانب قوى أجنبية غربية. كان الإيرانيون يعلمون حقيقة أن النظام القمعي للشاه تدعمه حكومة الولايات المتحدة الأمريكية. لم يتوقف بغض الشعب وحافزه للانتقام عند إسقاط نظام الشاه، وإنما استهدف أيضًا تدمير كل مراكز القوى الداخلية التي كانت مسؤولة عن دعم وإبقاء النظام الملكي بشكل أو بآخر.

استقطر اطمئنان الشاه بالدعم الأمريكي أسوأ ما فيه من ميول قمعية. كان أول الأمر يعيش في رعب، ثم تخلى الرعب عن مكانه شيئا فشيئا ليحل محله الإرهاب، وجعله خوفه من الثورة يشتد أكثر فأكثر مع مرور

الزمن. وبالتدريج وُلدت في إيران دولة بوليسية من أبشع طراز. وأدرك الإيرانيون أن الحكومة البوليسية تلقى دعمًا كاملًا غير مشروط من حكومة الولايات المتحدة. ولعب الشاه دور (دمية) تحركها خيوط خفية تمسك بها أصابع أمريكا. وأدى هذا كما أشرنا من قبل إلى موقف ملائم لثورة تؤججها نيران الحقد والكراهية.

استفاد آية الله الخوميني من الموقف، وقدم النظرية الإسلامية الشيعية لتكون مظهرًا ولونًا عامًا للثورة. ولكن هل كان الحب الشيعي للإسلام هو الذي ولّد الكراهية ضد الولايات المتحدة، أم كان الإسلام مجرد واجهة تخفي الدوافع الحقيقية؟ لو لم يرفع الخوميني راية الإسلام، ألم تكن الثورة لتشتعل تحت اسم آخر؟ أليس الواقع أن الخوميني استثمر الموقف وأعطاه لونًا ومظهرًا، وكان من الممكن أن تستغله فلسفة أخرى غير دينية.. كأن تكون اشتراكية وطنية أو علمية؟

الواقع أن الخوميني سبق القوى التي كانت تحث الخطى في أثره، والتي لو أُتيح لها الوقت لتجاوزته هو وكل ما يمثله. لهذا أصبح الموقف في إيران معقدًا ومربكًا للغاية. لم يكن الحافز الأساسي للثورة مضادًا للشيوعية أو أية فلسفية يسارية، وإنما استهدفت الشاه ومستشاريه. ولكن كان هناك احتمال حقيقي أن تنتزع قيادة يسارية زمام الثورة من يد الخوميني.

كان عليه أن يقاتل في ثلاث جبهات في آن واحد. فبعد إسقاط الشاه كان عليه العمل على استئصال أنصار الشاه والقضاء عليهم، ثم اجتثاث جذور النفوذ الأمريكي حيثما كان.. وهذا في حد ذاته تأييد للفكر

اليساري، والذي إذا ترك ليزدهر دون عائق، لنجح في اختطاف السلطة من بين يدي الخوميني، واستبدل النظرية الإسلامية بنظرية ماركسية لينينية.

ومن حسن حظ الخوميني أنه كان داهية وقويًّا بما فيه الكفاية ليستخدم سيف الأيدلوجية الإسلامية ببراعة، ليس في مواجهة اليمين الأمريكي وحده.. بل وضد السيار الروسي أيضًا وبنفس الكفاءة.

ولكن بعد أن تم القول والفعل، تبين الآن أن الثورة الإيرانية، أيًّا كان دافعها، لم يكن الإسلام أبدًا هو الذي هداها ووجهها. ويمكنك إذا أردت تسمية ما حدث، وما هو جار في إيران، أن تسميه الخومينية، فذاك أفضل. فالقوة الحقيقية الفعالة ليست ذات طبيعة دينية، لا في حقيقتها ولا في أساسها. لقد استغلت القوة السياسية رد فعل الإيرانيين ضد الشاه للوصول إلى أهداف سياسية بحتة.

هناك تاريخ طويل لتزايد وعي الإيرانيين بالاستغلال والاستعباد من قوة أجنبية من نوع أواخر. وبالرغم من أن غالبية الإيرانيين مسلمون، فإنه لا يمكن التغاضي عن أنهم لم يستطيعوا نسيان أو غفران غزو العرب لوطنهم. ومع أن الجراح تبدو وكأنها قد اندملت منذ زمن بعيد، وأن عوامل فعالة من الدين المشترك والأعداء المشتركين قد لعبت دورًا هامًا في التحام الإيرانيين والعرب.. إلا أنّه لا يمكن إنكار وجود تيار تحتي مستمر من عدم الرضا بسيادة العرب على إيران خلال القرون الماضية. ولا يغيبن عن البال أنه في عصر ما قبل الإسلام كانت إيران واحدة من أعظم الحضارات التي عرفها العا لم قوة وازدهارًا. كن أباطرة الرومان يسيطرون على العا لم الغربي، وقياصرة

الفرس يحكمون الشرق. وما تزال ذكريات هذا الماضي البعيد لم تمحها الأيام تمامًا.. مع أن سلطان الأخوة الإسلامية القوية قد خفف منها كثيرًا. كان هناك دائمًا ظل للحضارة الإيرانية العظمى يداعب خيال المثقفين الإيرانيين.

التاريخ الطويل للعداء الإيراني العربي، والحملات التأديبية التي كان يبعث بها ملوك الفرس إلى جزيرة العرب.. تركت ندوبًا قبيحة متقيحة، لم يستطع الزمان أن يزيلها من النفوس.. مع أنه الشافي العظيم.. وهذا أمر بشري، فالناس في أنحاء العالم يصعب عليهم أحيانًا أن يفصلوا أنفسهم عن الماضي.. وينسوا الجراح والإهانات التي نالت من شرفهم. ومثل هذه الفصول لن تغلق نهائيًّا من صفحات التاريخ، بل ستفتح مرة بعد مرة.

كفانا من حزازات الإيرانيين، ولنلتفت إلى عصر أكثر حداثة.. فليس ضد العرب وحدهم ربى الإيرانيون مرارتهم وإحساسهم بالظلم. ففي الحرب العالمية الثانية.. تعرض الإيرانيون لأسوأ نوع من السيطرة على يد قوات الاحتلال البريطانية المسيطرة. في حالة العرب كان هناك على الأقل عوامل التهدئة من الثقافة والدين، أما في حالة البريطانيين فإن الهوة بين الحاكم والمحكوم كانت تتسع ولا تضيق.

بعد سقوط النفوذ البريطاني.. جاء عصر من التبعية والسيطرة غير المباشرة للقوى العظمى.. من خلال أنظمة من الدمى العميلة. وفي هذه الفترة من الإمبريالية الجديدة تحولت المحمية الإيرانية من حضن بريطانيا إلى حضن الولايات المتحدة الأمريكية. وأصبح شاه إيران رمزًا للإمبريالية الأمريكية..

التي طالما ساندت أيدلوجيات تتعارض مع الأيديولوجية الأمريكية نفسها، كما لا تزال تفعل إلى اليوم في بولندا ونيكاراجوا وإسرائيل وجنوب أفريقيا على سبيل المثال.

لم يكن وقود الكراهية الذي أشعلت شرارته الثورة الخومينية في النهاية.. حصيلة القهر الأمريكي وحده، ولكنه كان يتجمع على مدى قرون.. كما يتجمع النفط في مكامنه في باطن الأرض. والنقطة المهمة الجديرة بالملاحظة هنا.. أن هذه الكراهية ليست في أساسها نابعة من الدين. وإذا لم يكن الخوميني قد استغلها باسم الإسلام لاهتبلها زعيم شيوعي باسم العدالة الاجتماعية. وأيًّا كان الإسم الذي أعطي لها.. دينيًّا أو غير ديني.. فإن العوامل الكامنة والمحركة للثورة كانت وستبقى كما هي.

لقد قلت مرات كثيرة.. لأولئك الذين يحسبون أن التجاوزات التي ارتكبها الخوميني ضد قومه، وأعمال الانتقام التي نفذها في بلاد أخرى.. أنها أعمال ذات طابع إسلامي.. قلت لهم أن الإسلام كدين.. لا علاقة له بتعبير الإيرانيين عن سخطهم. ويمكن القول بأنه من واجب الغرب أن يعامل الخوميني بوصفه من المحسنين إليهم بدلًا من أن يتخذوه عدوا لهم. أقول ذلك لأني واثق تمامًا من أنه لو لم يتمكن الخوميني من استغلال الموقف.. وإعطائه الوجه الإسلامي كي يدعم ويبقى في السلطة عصبة من رجال الدين المسلمين.. لكان من المؤكد أن يستغل الموقف قادة إيرانيون من ذوي الميول السيارية، ولصارت إيران التي نراها اليوم خضراء مشوبة بنقط حمراء.. مصبوغة عندئذ باللون الأحمر تمامًا. ومن السذاجة القول بأن القيادة

الشيوعية التي خلقها ودربها الدكتور مصدق قد ضعفت ووهنت.. بحيث تعجز عن أن تلعب دورًا مؤثرًا وثوريًّا زمن خلع الشاه، تلك الفترة التي تعتبر مطلع عهد جديد في تاريخ إيران. وفي الحقيقة إن القيادة الشيوعية مدعومة ومدربة جيدًا، ولو كان هذا ما جرى لكانت له تبعات مشؤومة على الشرق الأوسط، ذي الثراء البترولي والضعف العسكري. وإذًا، فمهما بدا النظام الإيراني للغرب ملطخًا بالدماء كريهًا.. فيمكن النظر إليه على أنه نعمة مخفية لهم، ويجدر بهم رؤية الدور الخوميني من هذا المنظور.

وقد تبدو الحرب الإيرانية العراقية غير مناسبة في هذا الموضوع، ولكنها تلقي ضوء على طبيعة الأحداث المتفجرة في هذا الجزء من العالم الإسلامي. كل دولة منهما تعلن انتماءها للإسلام، وتزعم بأنها استوحت الكراهية والتخريب والإذلال الذي تنزله بالأخرى باسم الإسلام المقدس.

فكل الجنود الذين هلكوا في المعركة من الجانب العراقي أبَّنتهم وسائل إعلامهم على أنهم شهداء، في حين أن جميع الجنود الإيرانيين الذين قتلوا في المعارك بأيدي العراقيين وصموهم بالكفر.. وأكدوا أنهم سينتقلون من ساحة المعركة إلى نار الجحيم فورًا! ونفس القصة بالتمام والكمال ترددها وسائل الإعلام الإيراني معكوسة بالطبع. وكلما سقط جندي عراقي صريعًا هتف الجنود الإيرانيون: الله أكبر!

عجبًا! في أي جانب كان الإسلام يا ترى؟ كل هذا يوضح أن تلك الشعارات كلها فارغة. والنقطة الوحيدة التي يمكن إثباتها بدون أدنى شك.. هي أن الجنود العراقيين والإيرانيين الذين قدموا حياتهم على أنها في سبيل

هدف نبيل.. قد غررت بهم قياداتهم، ولم يكن الإسلام موجودًا في بال هذا الجانب أو ذاك.

القرآن الكريم يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ* أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ* الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (سورة الحج:٣٩-٤١)

﴿.. كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة المائدة:٦٥)

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات:١٠، ١١)

ولقد تجاهل الفريقان المتحاربان كل تلك التعاليم القرآنية خلال العمليات الحربية. وفي أثناء موسم الحج بمكة المكرمة.. كانت هناك محاولات من جانب إيران لتبليغ رسالة الثورة الخومينية إلى سائر مسلمي العالم عن طريق الحجاج الإيرانيين. وللأسف أسفرت هذه المحاولات عن مواقف غاية في القبح.. إلى الحد الذي أحرج المسلمين. مثلًا ما حدث في مكة عام ١٩٨٧ أثناء موسم الحج، والاحتياطات المضادة الشديدة التي اتخذتها الحكومة العربية

السعودية.. كان ذلك حديث صحافة الغرب لمدة طويلة. والقرآن الكريم يعلم المسلمين جميعًا: ﴿.. وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (سورة البقرة:١٩٢)

ومن الفوائد التي جنتها القوى العظمى المساندة لإسرائيل سرًا وعلانية.. وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية.. من نظام الخوميني والخومينية هو أن الخوميني تُرك في وضع لا خيار له فيه إلا أن يواصل الحرب مع العراق. وهذا صرف انتباه العالم الإسلامي بعيدًا عن إسرائيل، وهي الشوكة المثيرة في جنبهم.. إلى موضوع مختلف تمامًا. وتراجع الشعور بوجود العدو الخارجي عن مكانه.. بسبب الشعور بعدم الثقة بين المسلمين بعضهم البعض. تقطعت أوصال منطقة الشرق الأوسط. وتوارى الخوف من إسرائيل جانبًا على الأرفف كأنه خطر ثانوي كامن.. لأن ثمة عاملًا ملحًا ضاغطًا، أرخى ستائر النسيان على مخاوف قد تكون حقيقية أو وهمية من عدو خارجي. وبالطبع، فلا بد أن يرفع الجانبان شعار (الإسلام في خطر) للتغرير بالجنود البسطاء. وحقيقة ما كان يجري هو إحياء روح المنافسة والغيرة بين العرب والعجم. لم تكن المسألة قوة إسلامية في مواجهة قوة غير إسلامية، أو الشيعة ضد السنة.. ولكنها تحريك بسيط ومباشر.. لضغائن ما زالت تعيش منذ آلاف السنين. وهذا هو السبب في أن العرب الذين كانوا من قبل ينتقدون العراق والسعودية.. أُستدرجوا للوقوف إلى الجانب العراقي. لقد أصبحت المسألة ببساطة: بقاء العرب ضد التحدي والتهديد المتزايد من قبل إيران.

ولقد أدانت القوى العظمى تلك الحرب بصراحة، وطالما طلبت وقف أعمال العدوان، ولكنهم كانوا هم أنفسهم المسؤولين عن المدد المتواصل بالسلاح لكل من الطرفين المتحاربين! ثم إن طائرات القتال والصواريخ والقذائف الموجهة والمدافع والدبابات والعربات المصفحة، وكل أصناف الأسلحة المدمرة التي كانت تعج بها جبهات القتال من الجانبين، لم تكن أبدًا مصنوعة على أرض بلادهم. كان تبادل صفقات السلاح والبترول تجري سرًا وجهرًا. وأخذت الحرب وقودها.. في نهاية الحساب.. من البترول الذي أنتجته العراق وإيران، وتحول إلى سلاح من صنع القوى الغربية والشرقية غير المسلمة. وفيما يتعلق بالغرب.. لم تكن صفقة سيئة بالمرة.. لقد أخذوا بترول الشرق الأوسط وقايضوه بأسلحة عتيقة وقديمة نسبيًّا. فمن يتصور صفقة أربح من هذه؟

وكما رأينا فقد نسوا إسرائيل.. العدو الرئيسي.. وقتل المسلمون المسلمين. استُخدم بترول العالم الإسلامي لتدمير وإحراق اقتصاد العالم الإسلامي. المنجزات الاقتصادية التي كدحوا لتحقيقها في العقد الماضي أمست يبابًا. أما عن التقدم والرخاء فقد ارتدت الدولتان على أعقابهما وتأخرا عنه كثيرًا.

لا شك في أن الحروب لها تأثيرات واسعة على التقدم الاقتصادي والمادي، وعلى الموارد البشرية، والإنجازات الثقافية والصناعية، ولكن بوسع الدول المتقدمة أن تعتمد على مواردها الذاتية وموارد حلفائها، ولا تتسبب متطلبات الحروب وضغوطها وصراع البقاء في استنزاف مواردها بسهولة، بل

إن الحرب تثري معارفهم العلمية وخبراتهم التكنولوجية إلى درجة كبيرة وفي مدى قصير. ويمكنهم استخدام المعرفة والخبرة المكتسبة خلال الحرب لإعادة بناء اقتصادهم على الفور، بل ودفعه إلى الأمام دفعات هائلة. ومن ثم، فإنهم وإن افتقروا ماديًّا في الظاهر نتيجة للحرب الطويلة.. إلا أن بوسعهم الإثراء كثيرًا لبناء مستقبل أفضل.

ولكن.. واحسرتاه! ليس الحال كذلك مع الأمم المتخلفة في مجال العلم والاقتصاد.. عندما تتورط في ترف الحرب.. لا خيار أمامهم عندئذ إلا أن يبيعوا كل ما عندهم، بل ويرهنوا مستقبلهم لدى البلاد المتقدمة علميًّا واقتصاديًّا كي يمدوهم بعتاد الحرب وبدون ذلك لا يمكن لحرب أن تطول إلى هذه المدة، وأن تصل إلى هذا القدر المخرب، كما حدث بين العراق وإيران.

إن المسؤولية عن كل ما وقع من فظائع.. ارتكبتها تلكما الدولتان في حق نفسيهما أو في حق غيرهما أحيانًا.. يجب أن تتحمل نصيبًا منها تلك الدول التي أسهمت في إمدادهما بالسلاح والذخيرة.

وعندما ينتهي كل ما يقال، وتسوى الديون، ويؤخذ في الحسبان تبادل السلع، فربما كان مناسبًا عندئذ.. النظر في مسألة من هو المستفيد من الحروب؟

ولقد رأينا كيف أدين الإسلام بأنه دين همجي، يؤيد الإرهاب، ويبشر بالكراهية والتعصب، ويفرق أتباعه إلى معسكرات متعادية متعطشة للدماء. وليس هناك مفاجأة.. فهي من الفوائد الإضافية التي يفوز بها أولئك الذين دبروا وتآمروا ونفذوا وأمدوا بمعدات الخراب أتعس الفرق المتحاربة في أمة الإسلام. وتصادف أن عبارة (الإرهاب الإسلامي) تقود إلى تعبير آخر

يدعو للاهتمام.. اخترعته وسائل الإعلام الغربي في العقد الماضي.. وهو القنبلة الذرية الإسلامية!

وزعموا أن باكستان تملكها. وبالطبع فلا بد وأن تكون هناك قنبلة ذرية إسلامية ما دام هناك شيء اسمه إرهاب إسلامي! ولربما ألصقوا عبارة (إسلامية) بكل المتعلقات الحربية الأخرى! لماذا لا نسمع عن قنبلة ذرية مسيحية أو يهودية أو هندوسية، أو قنبلة عنصرية أو شنتوية؟ ومن العجيب أنّه يمكن نسبة القنبلة الذرية إلى الآلاف من الديانات الأخرى، لكن الإعلام الغربي قد اختار، وعرّف، واستهجن قنبلة واحدة: القنبلة الإسلامية.. مع أن وجودها نفسه مشكوك فيه!

وكما صرحنا من قبل، فإن القوى الحقيقة الفعالة ليست حقًّا وأساسًا ذات طابع ديني.. فلماذا توصف بكلمة (إسلامية) قوى الإرهاب اليوم كلما تحركت للعمل في جماعات أو دول مسلمة. تلك القوى المسؤولة عن إطالة الحرب الإيرانية العراقية بتوفيرها المدد المستمر من السلاح لها.. لا يمكن أن يتهربوا من مسئوليتهم عما ترتب عليها من الخسائر الرهيبة في الأنفس والأموال، وما قاساه البشر من أهوال لا توصف. ومهما كانت دوافعهم الخفية.. فإنهم سيساعدون على استمرار بقاء اسم الخومينية لمدة أطول. ولو أن البلدين المتحاربين تُركا لمواردهما الهزيلة لأخذت الخومينية طريقها إلى الزوال والذبول.

من بين أمور أخرى، أحيَت هذه الحرب الروح القومية وقوتها. وحولت انتباه الإيرانيين بعيدًا عن مشاكلهم الداخلية.. في اتجاه تهديد من عدو

خارجي. وقد يبدو مدهشًا لو زادت من خيبة الأمل لدى الإيرانيين، ولربما نجم عنه تحدٍ سافر أو حتى ثورة ضد الخومينية وفي داخل إيران هناك ميل قوي نحو تقييم الثورة والحكم بما لها وما عليها. ومع أن الجزء الأكبر من المتنورين قد قُضي عليه، فإن الأحياء منهم يتجهون نحو إعادة تقييم خسائرهم ومكاسبهم أثناء الثورة الخومينية. وقد تكون هنا حركة نحو إيجاد نظام جديد لإيران.

كانت ضرورة رفع الروح المعنوية للجماهير خلال الحرب تجد كفايتها في هيجان الصراع، وعندما تنفد الروح المعنوية فسيكون ذلك يوم الشك العظيم. هل ستحل قوى اليسار أم قوى اليمين محل النظام الحالي، أم تبقى مع أصحاب الوسط؟ ستكون هناك معركة عظيمة للحصول على السيادة والاستيلاء على الحكم. وسوف يعود كل شيء إلى بوتقة الصهر، ولا يمكن لأحد أن يتكهن لإيران بما هو في بطن الغيب. الله تعالى وحده هو العليم، وكل ما بوسعي هو أن أدعو لشعب إيران أن تنتهي أيام شدتهم إلى خاتمة من السلام والسعادة. إنهم شعب شجاع موهوب ولا ريب. لقد قاسوا الكثير في الماضي، ولا يزالون يقاسون على يد غير الإيرانيين وعلى يد الإيرانيين. ومن عجائب الأقدار أنهم اكتسبوا سمعة سيئة بسبب هذه الصفقة عسى الله أن يتولاهم برحمته، ويخلصهم من مأزقهم الصعب.

والآن نلتفت إلى جانب آخر للثورة الخومينية في إيران. بعد ما وصل الخوميني إلى السلطة خطط لتغيير أسلوب الحياة ظاهرًا وباطنًا.. ليس لدى الإيرانيين المسلمين وحدهم، بل أخذ على عاتقه إحداث ثورات مماثلة في

الدول الإسلامية المجاورة. وألقى في روع العالم الإسلامي أنه سيلعب دورًا أقوى في مساعدة الفلسطينيين وهزيمة القوى الصهيونية. ومن الواضح أنه لا الحكومات الإسلامية ولا حكومة إسرائيل.. كانوا على استعداد لاستقبال رسل الثورة الإيرانية بأذرع مفتوحة، ومن ثم لم يكن لتصدير الثورة سبيل شرعي أو سلمي. وفشلت إيران في تصدير بضاعتها الثورية إلى البلاد الإسلامية المجاورة.. وقد حققت، ولا شك، بعض النجاح في القطاع الفلسطيني الإسرائيلي. فكما أشرت آنفًا، بدأت الأنشطة الإرهابية تعرف طريقها إلى المنطقة موجهة إما ضد إسرائيل أو ضد ممثلي القوى الغربية، تحمل بطاقة هوية إسلامية، ولكن فلسفتها نابعة من الثورة الإيرانية وحدها.

الحديث المتزايد الذي نسمعه عن النضالية واستخدام القوة، يتطلب تحليلًا بعناية قبل أن نتفهم أهمية هذه الظاهرة الغريبة. إن الموقف الضيق المتعصب أصبح اليوم أكثر شيوعًا بين رجال الدين المسلمين في كل بلاد العالم الإسلامي. وتقع مسؤولية ذلك أساسًا على أكتاف الحكومة السعودية، التي تحاول جذب انتباه المسلمين جميعًا، وهي تبدو مصممة على نشر نفوذها السياسي تحت عباءة دينية. إذ هي تتمتع بميزة فريدة.. لأنها الوصية على أقدس مدينتين عند المسلمين.. مكة المكرمة والمدينة المنورة.. فهي بالتأكيد في موقف يسمح لها باستغلال هذا الوضع إلى أقصى مداه.

والفلسفة الدينية السعودية تقوم على الفكر الوهابي، الذي يستمد منابعه من الفكر الإسلامي المتشدد في أيام العصور الوسطى، أكثر مما يأخذ من

الإسلام السمح المتفهم الذي كان في زمن النبي ﷺ. وينتشر النفوذ السعودي، مدعومًا بدولارات النفط، والرصيد الهائل في البنوك العالمية. ومن مفاخر السعودية أن جزء من عائدات الاستثمارات الضخمة يستخدم لمد قنوات من صندوق المعونة السعودي إلى البلاد الإسلامية الفقيرة. وفي أغلب الأحايين لا يمنح هذا العون لإحياء اقتصادهم المنهار، وإنما يوجه لبناء المساجد والمدارس والمعاهد لتخريج (العلماء) من الصنف السعودي. ومن ثم، فحيث ما تتبعت مجرى المعونات المالية السعودية ستلحظ بين رجال الدين المسلمين زيادة سريعة في المواقف الضيقة المتعصبة المنسوبة إلى الإسلام. ولا شك أن العالم المسيحي عندما يسمع تلك الأصوات المتحمسة لكل القيم غير الإسلامية.. والتي تدعو إلى الجهاد.. أو الحرب المقدسة ضد الحكومات غير الإسلامية.. يُساقون إلى الاعتقاد بأن الحديث عن الجهاد سوف يُترجم إلى اشتباك حربي بالفعل. ولكن ما يحدث في الواقع يختلف عن ذلك تمامًا.

يتحدث رجال الدين المسلمون بصوت عال عن الحرب المقدسة.. والتدمير النهائي للقضاء على القوى غير الإسلامية، وهم في الحقيقة لا يقصدون بالقوى غير الإسلامية قوى المسيحية أو اليهودية أو البوذية أو الإلحادية.. وإنما يعنون بها كل من سواهم من الطوائف الإسلامية الأخرى.. فهم أعداء الإسلام.. إمَّا بسبب خصائص معينة فيهم، أو بسبب عقائدهم التي تجعلهم محط لعنة الله وعباده الصالحين!

فليس أعداء الإسلام الحقيقيون.. في نظرهم.. هم غير المسلمين، وإنما هم بعض الطوائف الإسلامية في عالم الإسلام. والميول النضالية المناهضة تتوجه من طائفة إسلامية ضد طائفة إسلامية أخرى أكثر من توجهها ضد غير المسلمين. وهذا هو السبب في إصرارهم على عقوبة الإعدام للمرتد. إنه سلاحهم الذي يشهرونه ضد الأقليات الإسلامية الذين يخالفونهم في مسألة مذهبية شائعة بين غالب أهل البلد. هذه الطوائف (المناضلة) توزع ضربة الموت في طعنتين: الأولى إعلان أن عقائد مخالفيهم غير إسلامية، أي تعدهم مرتدين، والثانية القول بأن عقوبة الارتداد هي الموت، ومن ثم فهم يستحقون الإعدام.

ولسوف يوافق المراقب المحايد على أن الميول النضالية النامية تخلق الاضطراب بين المسلمين أنفسهم، وتولد كراهة وبغضاء شديدة في قلوب أبناء كل طائفة ضد أبناء الطوائف الأخرى. أما القوى غير الإسلامية.. فبوسعهم الشعور بالأمان التام، وأن يستريحوا مطمئنين ألا خطر عليهم بتاتًا بأي شكل كان.. مما يسمى بالميول النضالية في عالم الإسلام، ولبيان ذلك.. ما على المرء إلا أن ينظر في العلاقة بين السعودية والغرب، وعلى الأخص مع الولايات المتحدة. فلا يعقل أن تحكم السعودية ومن يدورون في فلكها، برفع السيف في وجه الولايات المتحدة الأمريكية أو أحد حلفائها، فالنظام السعودي يعتمد في بقائه على الولايات المتحدة الأمريكية اعتمادًا تامًا.. مائة بالمائة، وكل ثروات البيت الحاكم السعودي مودعة في البنوك الأمريكية والأوروبية. وفوق كل هذا، فإن اتكاله على

الغرب لأمنه في الداخل والخارج من الوضوح للجميع بحيث لا نرى حاجة للإسهاب فيه. وهذان العاملان يضمنان وحدهما ألا تجرؤ السعودية، أو أي دولة تحت نفوذها، أن تمثل تهديدًا لدولة غربية غير مسلمة. وفضلًا عن ذلك، ومن الحقائق الثابتة أنه لا توجد دولة إسلامية واحدة تعتمد على نفسها في إنتاج معدات الحرب، فكلها تعتمد إما على الغرب أو على الشرق، للحصول على حاجاتها الدفاعية أو الهجومية.. وهذا ضمان أكثر من كافٍ لسلوك مسالم وآمن مع القوى غير المسلمة. وينطبق نفس المبدأ على بلاد مثل ليبيا أو سوريا.. التي تتمتع بعلاقات ودية مع القوى الشرقية أكثر منها مع الغرب.

لا يتخيل أحد ممن لديهم معرفة بنظام الحرب الحديثة أن يكون ثمة تهديد حقيقي مما يسمونه (النضالية) الإسلامية لغير المسلمين.. هناك من غير ريب خطورة لهذه الميول المتزايدة، ولا بد أن ينزعج لها المرء. فخطورة النضالية الإسلامية تهديد للعالم الإسلامي نفسه. إنها تهديد يتجه إلى الداخل، ويفسد سلام المسلمين في كل مكان. وكل ما نلقاه في عالم الإسلام اليوم من انعدام التسامح وضيق الفكر وتعصب أعمى.. إنما هو تخريب للسلام في عالم الإسلام.. واحسرتاه!

إني مدرك لحقيقة كلمة (إرهاب) بالمفهوم الدقيق، فهي تنطبق على العمل الإرهابي كمحاولات التفجير والتدمير وما شابه ذلك. ولكني لا أعتقد أن هذه وحدها هي كل أنواع العمل الإرهابي التي يقاسي منها العالم. إني أعتقد أن كل إجراءات قمعية تقوم بها الحكومات ضد مواطنيها لتخمد

أصوات المعارضة.. يجب أن تدرج في قائمة الإرهاب، وأن تدان بقوة بمثل ما تُدان كل الأعمال الإرهابية الأخرى، لأني أعتقد أن كل قيود الكبت التي تضعها الحكومات ضد اليمين أو ضد اليسار داخل حدودها الوطنية.. إرهاب من أسوأ الأنواع.

عندما توجه أعمال الإرهاب ضد حكومة أجنبية، وتأخذ طابع التفجيرات هنا وهناك، أو اختطاف الطائرات.. مثل هذه الأعمال تجذب إليها الانتباه الشديد، ويتعاطف لها الرأي العام العالمي.. وحق له أن يتعاطف مع ضحايا مثل هذه الأعمال الإرهابية القاسية. ولا يكون هذا التعاطف بالقول وحده، وإنما يتبعه عادة إجراءات بناءة لمبادرة هذه المحاولات ومنعها في المستقبل. ولكن.. ماذا بشأن مئات الألوف من الناس، الذين يعانون تحت وطأة أيد شديدة لا رحمة فيها من حكومتهم نفسها؟ نادرًا ما تسمع صرخات كربهم في الخارج. وغالبًا ما تكتم صيحات احتجاجهم بحدود رقابية صارمة. حتى إن الوكالات الخيرية.. مثل منظمة العفو الدولية.. حينما تلفت أنظار الدنيا إلى أعمال الاضطهاد القاسية والتعذيب والحرمان من حقوق الإنسان، فتدان تلك الأعمال.. إذا حدث ذلك.. إدانة خفيفة من حكومات العالم. وفي أغلب الأحيان تُعد تلك الأعمال من الشؤون الداخلية للبلاد، وبدلًا من أن تُدمغ بوصفها أعمالًا إرهابية.. تذاع على أنها جهود حكومية لمنع الإرهاب الداخلي، وإقرار السلام والقانون والنظام!

إني مقتنع تمامًا أن كل إجراءات الحظر والعقاب التي تتخذها حكومة ضد شعبها لتكبت حركة شعبية أو معارضة محتملة.. تحيد في واقعها أغلب

الأحيان عن الوسائل القانونية، وتؤول إلى أفعال غاشمة عنيفة، مصممة لإلقاء الرعب في قلوب قطاع من الشعب أبدى عدم الرضى. ولقد قاست الإنسانية من إرهاب الدولة أكثر بكثير مما قاسته من أحداث التخريب أو خطف الطائرات كلها مجتمعة. ومن حيث وجهة نظر الإسلام، فإنه بالقطع يرفض ويدين كل أعمال العنف. والإسلام لا يقبل ولا يبرر، أي فعل من أفعال العنف، سواء ارتكبه فرد أو جماعة أو حكومة. هناك بالتأكيد مناطق غير مستقرة في العالم الإسلامي، حيث تمارس الجماعات والمنظمات، وأحيانًا الحكومات، أساليب العنف والإرهاب والعنف والتخريب. وأنباء فلسطين ولبنان وليبيا وسوريا كثيرًا ما تذاع في نشرات الأخبار، وفي غالب الأحيان يكون المرتبطون بها من المسلمين، ولكن هناك بعض استثناءات. فمن بين الفلسطينيين مثلًا من أخذوا على عاتقهم القيام بأعمال الإرهاب ضد إسرائيل، وكان فيهم بعض المسيحيين. وتسهيلًا للأمور، أو لنقص في المعلومات، يلقي الإعلام الغربي بها تحت بند (الإرهابيين المسلمين). يوجد في لبنان إرهابيون من المسلمين، ومن المسيحيين، وكذلك من عملاء إسرائيل وجنودها من اشترك في عمليات إرهابية تروع الأحاسيس الإنسانية، ولكن فيما يتعلق بما يجري في لبنان لن تسمع أبدًا بإرهاب يهودي أو مسيحي. فكل أعمال الإرهاب تُضَم معًا، وتحزم في ربطة واحدة تحت اسم (الإرهاب الإسلامي).

وفيما يخص (سلمان رشدي) فإن أي إنسان عاقل، له دراية صحيحة بالقرآن الكريم، لا يستطيع أن يتفق مع الإمام الخوميني في أن الحكم بالإعدام

يقوم على أساس من أية تعاليم إسلامية. فليس هناك عقوبة للكفر.. لا في القرآن ولا في حديث نبي الإسلام ﷺ. التجديف ضد الله عز وجل ورد ذِكره في القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ (سورة الأنعام:١٠٩).

ولم يمنح أي إنسان حق إنزال عقوبة الموت على من يسيء الأدب ضد الله تعالى. ولقد وقع من اليهود إساءة أدب ضد مريم أم المسيح عيسى عليه السلام، ذَكَره القرآن فقال: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ (سورة النساء:١٥٧).

ولم يرد أيضًا ذكر أي عقوبة مقررة، سوى ما ينزله الله بهم من عقاب. ومن المفجع، والباعث على الأسى، أن الإمام الخوميني أساء إلى الإسلام بدلًا من أن يدافع عنه، وتسبب في تشويه صورة الإسلام أمام العالم الحر.

ولقد رفض شيخ الجامع الأزهر القرار الخومينيّ. وإني على ثقة من أن كثيرًا من المسلمين الشيعة لا يوافقون على موقف الإمام الخوميني.

وبالرغم من كل ذلك، فمما يُجافي العدل أن نتجاهل المسألة الحقيقية. إني أشعر بعدم الإنصاف فيما فعله بعض السياسيين والعلماء، إذ أدانوا الخوميني بدلًا من إدانة سلمان رشدي.. الذي أخرج كتابًا في لغة قاسية متعمدة ومهينة لملايين كثيرة من المسلمين في العالم. ليس ذلك فحسب، بل إن الكتاب ساعد على زرع الألغام تحت علاقات السلام بين المسلمين والمسيحيين. وإذا حكمنا، على ضوء التعليقات المرسلة إلى الصحف الدولية من القراء.. فإنه قد أطلق قوى التعصب العنصري أيضًا.

وأُعلنها صريحة واضحة.. أني لا أبرر الإرهاب مهما كان نوعه، أو لونه، أو ملته، أو عاطفته، أو دوافعه وأهدافه التي يدّعي الإرهاب تمثيلها. الإسلام عقيدتي وديني، والإسلام لا يوافق على الفوضى في أي شكل من أشكالها. الإسلام بريء براءة تامة من أن يكون هذا الإرهاب من ضمن تعاليمه.

وللمرء أن يتساءل ما هو دين الإرهاب الذي ينظمه ويسانده رئيس عربي بدولارات البترول؟ وما هو دين النشاط الإرهابي الذي انغمست فيه دولة عربية في الماضي؟ هل هو الإسلام؟ وإذا كان كذلك، فما هو الفرق إذًا بين الإسلام والاشتراكية العلمية؟ أليس الفكر الإسلامي (الأخضر).. هو في حقيقته ومضمونه (أحمر).. بل شديد الحمرة؟

وإذا كان النشاط الإرهابي للمسلمين الأصوليين في إيران أو بعض الدول العربية يدعى (إرهابًا إسلاميًّا).. فإن لون إسلامهم يبدو أخضر داكنًا! عجبًا، كيف يمكن أن يتناقض مفهوم الإسلام مع نفسه تناقضًا تامًا؟ وكيف يمكن للإسلام أن يكون (أخضر) و(أحمر) في ذات الوقت؟

إذا كان ولا بد، فإن الإرهاب في دولة عربية يمكن أن يُرى فقط على أنّه إرهاب وطني.. متنكر. وبالمصادفة، فإنه يذكرنا بالزعيم الكوبي (فيدل كسترو) الذي قطع شوطًا أبعد كثيرًا من أي رئيس عربي في ولعه بالعنف والإرهاب. ومع ذلك لا نسمع أبدًا أن أفعاله هذه تدعى (الإرهاب المسيحي).

والشيء بالشيء يُذكر، فبحث الإرهاب يستحضر أمام مخيلتنا مراحل تاريخية متنوعة. فقد تورطت المسيحية في أفعال قبيحة من الاضطهاد والتعذيب، وأوغل بعض الملوك المسيحيين في أعمال غاشمة من العنف

والاضطهاد تحت تأثير نظرية ضالة خاطئة بأنهم يخدمون دين المسيح. وخلال سنوات (الموت الأسود ١٣٤٨، ١٣٤٩)، ألم تُحرق أعدادًا كبيرة من اليهود وهم أحياء في بيوتهم؟ وفي زمن محاكم التفتيش الأسبانية عمّهم دهر طويل من الرعب.. تحت توجيه وهدي (!) من بعض رجال الكهنوت المسيحي؟ كثير من النسوة المسكينات أنزلت بهم محنة القتل بتهمة السحر. وكانت هناك فكرة عامة محرفة بأن الطريقة المسيحية للتعامل مع السحر هو قتل السحرة.

ومهما كانت العلاقة بين هذه الأفعال وبين المسيحية، إلا أنّ الجرائم التي ارتكبت ضد الإنسانية كانت نتاج عصور شديدة الظلمة سادها الجهل تمامًا. متى يبدأ الإنسان فهم الفرق بين مسلك الشخص وتعاليم دينه؟ إذا خلط الإنسان بينهما، وحاول فهم الدين بدراسة سلوك أتباعه، لترتب على ذلك مسائل متنوعة، فإن مسلك أتباع الدين يختلف من قطر إلى قطر، ومن مذهب إلى مذهب، ومن عمر إلى عمر، ومن شخص إلى آخر.

ما أشد اختلاف سلوك تلاميذ المسيح عليه السلام مع سلوك أتباعه في شيلي على عهد "بينوتشت" (Pinochet)، أو في جنوب أفريقيا الذين يزعمون تمسكهم بالقيم المسيحية! من هو الذي يمثل المسيحية؟ هل يحق لنا أن نصف الحربين العالميتين الأولى والثانية.. التي فقد فيها الملايين أرواحهم.. بأنها حروب مسيحية ضد الإنسانية؟ في الحرب العالمية الثانية كانت خسائر الروس تربو على ستة ملايين من الأنفس، أي ما يعادل شعب سويسرا.. ووصلت الخسائر المادية في الممتلكات حدًا من المحال تقديره، فهل تعزى

هذه التجاوزات إلى المسيحية؟ أم هل نستمد فهمنا للمسيحية من أيامها الأولى، عندما كان المسيحي يدير خده الأيمن لمن ضربه على خده الأيسر، والذين قُدّموا طعامًا للوحوش، وحرقوا أحياء في بيوتهم، ولم يردوا على العنف بالعنف أبدًا؟ أما أنا.. فأختار هذا الطريق الأخير.

كل عمل حربي في بلد إسلامي يعزوه الغرب إلى (الإرهاب الإسلامي). أما إذا وقع في بلد آخر.. فهو نزاع سياسي! لماذا انتشرت معايير العدالة المزدوجة في هذا العصر.. وفي هذه الأيام؟ لقد بدأ المرء يتساءل فعلًا.. هل هناك تيار خفي من البغضاء تحت هذا السطح الهادئ للحضارة المسيحية؟ أهي مخلفات الحروب الصليبية ضد قوى الإسلام رغم انقضاء القرون؟ أم هي خمر معتقة من سموم المستشرقين تقدم في كؤوس جديدة؟

إن فكرة انتشار الإسلام بالسيف موضع شك كبير. وحروب الحكومات الإسلامية ينبغي أن توزن بميزان مبادئ السياسة والعلاقات الدولية السائدة في هذه الأيام.. وليس على أساس من الدين.

إن التعبير بالعنف عَرَضٌ لأمراض كثيرة في المجتمع. والعالم الإسلامي اليوم لا يعرف أي السبل يسلك. فالناس غير راضين عن أمور كثيرة، وليس لهم من وسيلة للسيطرة عليها. إنهم ضحايا الاستغلال بأيدي قادتهم الفاسدين أو الدمى العميلة في يد القوى الخارجية. ولسوء الحظ أن كثيرًا من قادة البلاد الإسلامية أنفسهم يلتمسون من الإسلام ستارًا لأفعال العنف والقهر.. كما حدث في عهد رئيس باكستان الجنرال ضياء الحق. إن الثورات الدموية تخالف فلسفة الإسلام، وينبغي ألا يكون لها مجال في بلاد إسلامية.

وبوصفي من رجالات الإسلام، وإمامًا لجماعة روحية.. واجهنا قرنٌ كامل من الاضطهاد.. مائة عام من الإرهاب والقسوة.. ولذلك فإني بكل قوة أدين كل عمل إرهابي، وكل صورة من صور الإرهاب، لأن عقيدتي الراسخة هي أن الإسلام، وكل دين حقيقي، أيًّا كان اسمه، لا يمكن أن يقر باسم الله ارتكاب العنف، وسفك دماء الأبرياء من الرجال والنساء والولدان..

الله الودود، والله السلام.

والودود لا يدعو إلى البغضاء.. والسلام لا يحض على الإرهاب أبدًا.

المراجع العربية

القرآن الكريم.
صحيح البخاري.
صحيح مسلم.
جمع الترمذي.
سنن أبي داوود.
سنن ابن ماجه.
سنن النَّسائي.
مسند بن حنبل.
أبو الأعلى المودودي، الجهاد في الإسلام.
أبو محمد عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، مكتبة الكليات الأزهرية،١٩٧١.
الإمام الغزالي، فيصل التفرقة بين الإسلام و الزندقة، القاهرة، ١٩٠١.
الإمام الراغب الأصفهاني، المفردات.
الإمام فخر الدين الرازي، التفسير الكبير.
الإمام محمد عبده، تفسير المنار.
الزرقاني، شرح المواهب اللدنية، الجزء الأول، القاهرة، ١٣٢٥ هج.
الإمام الشافعي، كتاب الأم.
أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسول و الملوك.
عبد الحميد هبة الله بن الحديد، شرح نهج البلاغة، القاهرة،١٩٦٧.
تفسير البحر المحيط.

شرح النووي لصحيح مسلم، الجزء الثاني، لاهور،١٩٥٨.
عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المغربي، تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧١.
حسن بن محمد الديار بكري، تاريخ الخميس، مؤسسة شعبان، بيروت.
العلامة بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت، دار الكتاب العربي.
العلامة ابن الأثير، أُسد الغابة في معرفة الصحابة، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، دار الكتب العلمية.
العلامة شمس الدين السرخسي، المبسوط، ط٢، دار المعرفة للطباعة و النشر، بيروت.
فتح الباري شرح صحيح البخاري.
ابن تيمية منهاج السنة.
تاريخ الكامل.
مشكاة المصابيح.
عبد الحي اللكناوي، الرفع و التكميل، طبعة قديمة، لكنهو، الهند.
ابن سعد، الطبقات الكبير، الجزء الثاني.
محمد بن أحمد عثمان الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
أبو جعفر محمد بن عمرو المكي، الضعفاء الكبير، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٨٤.
علي بن أبي بكر الرغيناني، الهداية شرح البداية، الطبعة الأخيرة، مصر.
فتح القدير، الجزء الرابع.
العلامة جلبي، شرح فتح القدير.
علي بن برهان الدين الحلبي، إنسان العيون، الجزء الثاني.

****

المراجع الإنجليزية

Report of the Court of Inquiry Constituted Under Punjab Act II of 1954 to Inquire into the Punjab Disturbances of 1953 (Lahore: Government Printing House, Punjab, 1954), Justice Mr. Muhammad Munir (president) and Justice Mr. M. R. Kayani (member) constituted the committee.

P. Schaff, Select Library of Nicene and Post-Nicene Fathers, 1st series vol. IV (Buffalo, 1887).

Washington Irving, Mahomet and His and successors, 2 vols. (New York: G.P. Putman's Sons,1868).

'The Mohommedan controversy', The Calcutta Review (Calcutta, July-December 1845), vol. IV.

Sir William Muir, The life of Mahomet (London: Smith Elder & Co., 1859), vol. I.

Dr. D. W. Leitz, Asiatic Quarterly Review, October 1886.

W. Thomas Arnold, The Preaching of Islam: a History of the Propagation of the Muslim Faith, 2nd ed. (London: Constable and Co. Ltd., 1913).

William Hailey, to the government of India, 25 July and 12 August 1927, Government of India Home Political Proceedings 1927.

W. Montgomery Watt, Muhammad at Medina (Karachi: Oxford University Press, 1981).

Will Durant, The Story of Civilization, 11 vols. (New York: Simon & Schuster, 1950); vol. IV.

Harriet Rouken Lynton and Mohini Rajan, The Days of the Beloved (Berkeley: University of California Press, 1974).

Fazlur Rahman, Islam and Modernity- Transformation of an Intellectual Tradition (Chicago: University of Chicago Press, 1982).

Joel Carmichael, The Shaping f the Arabs, a Study In Ethnic Identity (New York, 1967).

Maxime Rodenson, Mohammed, trans. Anne Carter (New York, 1971).

Martin Lings, Muhammad , his Life Based on the Earliest Sources (London: George Allen & Unwin, 1983).

Stanley Lane-Poole, Selections from the Quran and Hadith, (Lahore: Sind Sagar Academy, n.d.).

Edward Gibbon, Decline and Fall of the Roman Empire, vol. 5, ed. J. B. Buey (London:1909).

Bernard Lewis, The Jews of Islam(Princeton: Princeton University Press, 1983).

James Drever, A Dictionary of Psychology, revised by Harvey Wallerstein (1964).

Pierre Janet, Les Observastions et la psychasthenie (Paris: Alcan,1903).

Robert S. Woodsworth and Marry Sheehan, Contemporary School of Psychology (New York: The Ronald Press Company, 3rd ed., 1964).

Elton Mayo, some Notes on the Psychology of Pierre Janet (Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press, 1948).

Kurt Lewin, ’The Conceptual representation and measurement of psychological forces’, Contributions to Psychological Theory, 1, (4).

Hugh Nissenden, ‘Scripture and Survival’, The New York Times Book Review, 17 March 1985.

S. G. F. Brandon, Dictionary of the History of Ideas (New York, 1973), vol. 11.

C. J. Hefele, History of the Christian Councils (Edinburgh, 1894), vol. III.

Durant, Will, The History of Civilization (New York, 1950), vol. IV.

J.E.E. Dalberg-Acton (1st Baron Acton), The History of Freedom and Other Essays (London: Macmillian,1907).

Thomas Hobbes, Leviathan, or Matter, Form and Power of a Commonwealth Ecclesiastical and Civil (Chicago: Great Books of the Western World, Encyclopedia Britannica Inc., 952).

Goldziher, Vorlesungen uber den Islam, 2nd ed. (Heidelberg, 1925).

Bernard Lewis, Islam in History: Ideas, Men and Events in the Middle East (London, 1973).

C.H.Becker, 'The expansion of the Saracens', The Cambridge Medieval History (New York: Macmillan, 1913), vol. II.

Bernard Lewis, The Arabs in History (London, 1958).

Ignaz Goldziher, Mohammed and Islam, trans. Kate Chambers Seelye (New Haven: Yale University Press, 1917).

Sir Judanath Sarkar, Short History of Aurangzib (Calcutta, 1954).

Maxime Rodinson, Mohammad, trans. anne Carter (New York, 1971).

The Shaping of Arabs, a Study in Ethnic Identity, New York, 1967.

The Journal of the Economic and Social History of the Orient, vol. VIII.

Wilfred Cantwell Smith, Modern Islam in India (Lahore, 2nd ed., 1947).

Aziz Ahmad and G. E. Grunebaum (eds.) Muslim Self-statement in India and Pakistan 1857-1968 (Weisbaden, 1970).

William J. Roehrenbeck, Collins Encyclopedia, vol. 23, article headed, War Costs and Casualities'.

****